شرح

كتاب التوحيد

لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
حفظه الله

الناشر
مكتبة الرشد
الرياض

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مكتبة الرشد للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض - طريق الحجاز
ص.ب : ١٧٥٢٢ الرياض : ١١٤٩٤ هاتف : ٤٥٨٣٧١٢



تلكس : ٤٠٥٧٩٨ فاكس ملي : ٤٥٧٣٣٨١
فرع القصيم بريدة حى الصفراء
ص.ب : ٢٣٧٦ هاتف وفاكس ملي : ٣٢٤٢٢١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمـده، ونستعينه، ونستغفـره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهـده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيهـا الذين آمنوا اتقـوا الله حق تقاته ولا تموتـن إلا وأنتم مسلمـون﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يا أيهـا الناس اتقوا ربكم الذي خلـقكم من نفس واحدة وخلق منهـا زوجها وبث منهما رجالاً كثـيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ [النساء: ١].

﴿يا أيهـا الذين آمنوا اتقـوا الله وقـولوا قولاً سـديداً* يصلح لكم أعـمـالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد الذي ألفه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعـالى المتوفي عام ١١١٥هـ- ١٢٠٦هـ عندمـا رأى حاجة الناس إليه في ذلك العصر فهو من أهم الكتب التي ألفت في هذا الباب ولأن هذا الكتاب قد ألف في موضـوع خلق الله الخلق لأجله قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] لذا فإن هذا الكتاب لا يسـتغني عنه طالب علم ويجب أن لا يخلو مـنه بيت مـسلم لأجل هذا قـد تناول الـعلمـاء، هذا الكتـاب بالشروح والحواشي التي تبـسط مسائله لطلاب العلم وما زال طلبـة العلم يتلهفون للشروح التي تظهر لهذا الـكتاب وها نحن اليوم نقدم لطلبة العلم شرحاً مـختصراً لهذا الكتـاب ومما يزيد هذا الشرح بهـاءاً فهو لعـلامة هذا العصـر وإمام أهل السنة والجماعة في هذا العصر شيخنا الفـاضل أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لادارات البحـوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشـاد بالمملكة العربية السعودية حفظها الله من كل سوء ونسأل الله تعالى أن يبارك في شيخنا وأن يجعله

له في ميزان حسناته إنه ولي ذلك والقادر عـليه، ونحن إذ نقدم هذا الشرح لطلبة العلم نأمل أن نكون قـد قدمنـا لهم ما يفـيدهم في دينـهم ويجعله عـوناً لهم في الدعوة إلى الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحـمد لله رب العالمين وصلى اللهم وسلم على نبينا مـحمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الناشر

ترجمة المؤلف

هو العالم العابد الحافظ الزاهد إمام أهل السنة في هذا العصر أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز ولد بمدينة الرياض في ذي الحجة عام ١٣٣٠هـ وحفظ القرآن وهو دون البلوغ على يد شيخه عبد الله بن فريح ثم بدأ في تلقي العلوم الشرعية وكف بصره وهو في العشرين من عمره أي عام ١٣٥٠هـ ولم يثنه فقد بصره عن طلب العلم بل زاده ذلك جداً واجتهاداً وقد عوضه الله عز وجل بفقد بصره الذكاء المتوقد وزاد قلبه بصيرة وعلماً حتى علت منزلته عند عامة المسلمين ونسأل الله تعالى أن يعلي درجته في الجنة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تلقى الشيخ علومه على عدد من علماء عصره وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن عبد اللطيف، والشيخ صالح بن عبد العزيز، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، والشيخ حمد بن فارس، والشيخ سعد بن وقاص، والشيخ محمد بن إبراهيم رحمهم الله تعالى.

تولى الشيخ عدد من المناصب وكان أولها توليه القضاء بمدينة الخرج لمدة أربعة عشر عاماً من عام ١٣٥٧هـ-١٣٧١هـ ثم بعدها عمل بالتدريس بالمعهد العلمي بالرياض وكلية الشريعة ثم عين نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية ثم تولى إدارة الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٩هـ ثم عين عام ١٣٩٥هـ رئيساً عاماً لادارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد.

وللشيخ أيضاً عضوية في كثير من المجالس العلمية والإسلامية نسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أيامه ويحفظه من كل سوء

للشيخ عدد كبير من المؤلفات نذكر بعضاً منها الفوائد الجلية في المباحث الفرضية، التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة، التحذير من البدع، رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام، العقيدة الصحيحة وما يضادها،

وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها، الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، وجوب تحكيم شرع الله ونبذ من خالفه، حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار، نقد القومية العربية، الجواب المفيد في حكم التصوير، الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ودعوته وسيرته، ثلاث رسائل في الصلاة، كيفية صلاة النبي، وغيرها من المؤلفات المفيدة التي إستفاد منها عامة المسلمين نسأل الله تعالى أن يبارك لنا في شيخنا ويحفظه من كل مكروه وسوء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

كتاب التوحيد

١ - باب حق الله على العباد وحق العباد على الله

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعْبُدُون ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿ ولَقَدْ بعَثْنَا فِي كُلِ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ الآية [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تعبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية [الاسراء: ٢٣].

وقوله: ﴿واعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا به شَيْئًا ﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿ قُلْ: تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ: أَلاَّ تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قال ابن مسعود: «مَنْ أراد أن ينظرَ إلى وصية مُحمَّد ﷺ التي عليها خاتمُه فليقرأ: قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾. إلى قوله: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِراطِي مُستَقِيمًا ﴾ الآية.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنتُ رديفَ النبيِّ ﷺ على حمار فقال لي: يا معاذ؟ أتدْرِي مَا حَقُّ الله عَلى العبَاد، وَمَا حقُّ العبَاد عَلى الله؟ قُلْتُ الله ورَسُولُه أعلَم، قال: حقُّ الله على العبَاد أن يَعْبُدُوهُ ولا يُشركُوا به شيئًا، وحَقُّ العباد على الله أن لا يُعذِّب مَنْ لا يُشْرِكُ به شيئًا، قلت: أفلا أُبشِّرُ الناسَ؟ قال: لا تُبشِّرْهُمْ فيَتَّكلُوا» أخرجاه في الصحيحين.

التوحيد: مصدر وحّد يوحّد توحيدًا. والتوحيد: إفراد الله تعالى بالعبادة.

قال تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ هذه هي الحكمة الشرعية من خلقهم فلم يخلقهم ليكثر بهم من قلة، كما أنه خلقهم ليبتليهم أيضًا.

كما قال تعالى: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ وليعلموا صفاته كما قال: ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علمًا ﴾ فخلقهم ليعلمهم أنه الخالق الرازق والقادر وابتلاهم بالأوامر والنواهي والتكاليف ليعبدوه على بصيرة. ولأجل هذا بعث الرسل وانزل الكتب ليعلموا حقه ويتمسكوا به.

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾.

أي اعبدوا الله وحده واجتنبوا الطاغوت.

والطاغوت: ما عبد من دون الله وهو راض أما ما عبد من دون الله وهو لا يرضى بذلك كالرسل والأنبياء فليسوا بطاغوت لأنهم لم يأمروا بذلكِ.

﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا ﴾

أي أمر وأوصى أن لا تعبدوا إلا الله لأنه هو المستحق للعبادة فلا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله فاعبدوه وحده ولا تشركوا معه في عبادته أحداً من نبي أو ملك أو ولي أو غير ذلك. فعلى الإنسان أن يحذر من الشرك كله.

﴿ فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ﴾ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئًا ﴾ . . . الآية.

أي قل يا أيها الرسول: تعالوا أيها الناس أخبركم وأقص عليكم ما حرمه الله عليكم واتل على علم ويقين لا عن شك وظن وأول هذه المحرمات: الشرك.

و (لا): صلة. فحرم الشرك كما حرم المحرمات وأعظم هذه المحرمات هو الشرك.

والشرك: صرف أي نوع من أنواع العبادات لغير الله.

واشتملت هذه الآيات على عشرة أمور:

الأول: الشرك.

الثاني: الإحسان إلى الوالدين وذكرهما بعد ذكر حق الله يدل على عظم حقهما، والإساءة إليهما من أجرم الذنوب والمعاصي وقرنهما الله بحقه في غير ما آية.

الثالث: عدم قتل الأولاد.

الرابع: عدم قرب الفواحش من الغيبة والنميمة والزنا والسرقة وغيرها.

الخامس: عدم قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

السادس: عدم أكل مال اليتيم. واليتيم هو الذي مات أبوه قبل الاحتلام.

السابع والثامن: الكيل والوزن بالقسط.

التاسع: الوفاء بعهد الله.

العاشر: العدل.

وعهد الله ما أوصى به: من عبادته وعدم معصيته وإفراده.

والفواحش: هى المعاصي وسميت بذلك لأن العقل السليم ينكرها والفطرة السليمة تنكرها.

والوصية: الأمر المؤكد، أوصى بشيء إذا أكده.

والعقلاء: هم الذين يعقلون هذه الأمور ويلتزمونها بعقولهم.

﴿ **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه** ﴾ صراط الله هو فعل الأوامر وترك النواهي والإخلاص له، فعليهم أن يستقيموا عليه ويلتزموا به.

﴿ **ولا تتبعوا السبل** ﴾ والسبل: هى البدع والأهواء والشهوات المحرمة، وذكر التعقل أولاً لأن العبد يتفكر أولاً ثم يتأمل فيعرف ويتذكر ثم يتّقي فيعمل بما ينفعه ويترك ما يضره ويغضب ربه.

قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التى عليها خاتمه...

أي كأنه كتبها وختمها بختمه، فهذه وصية الله وهي وصية من رسوله ﷺ، وكان الصحابة قد أسفوا لما أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يوصي ثم ترك ذلك، وذلك أنه حين أراد أن يوصي قال بعضهم أحضروا كتابًا وقال بعضهم لا تشغلوه وهو مريض فأمر بإخراجهم وقال ما ينبغي عندي التنازع.

قال ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين الرسول وبين أن يكتب الوصية. وجاء في الحديث: أن الرسول قال لأصحابه ألا تبايعوني على هذه

الآيات؟.

* وعن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي عليه الصلاة والسلام على حمار فقال..

في الحديث تواضع النبي عليه الصلاة والسلام وحسن خلقه من وجوه: كونه راكب على حمار، وكون له رديف ومحادثته لمعاذ رديفه بخلاف ما يفعله بعض المتكبرين. وفيه: إخراج الفائدة والحكم بصيغة السؤال وهذا له وقع في قلب السامع ويكون متهيئًا ومتحمسًا للجواب بخلاف ما لو ذكر الحكم ابتداء فربما لم ينتبه له.

وقوله: الله ورسوله أعلم فيه حسن خلق معاذ حيث لم يتكلف مالا يعلمه وهذا هو الواجب أن يقول: لا أدرى أو الله ورسوله أعلم في حال حياته وبعد وفاته يقول الله أعلم أو لا أدري ولا يقول الله ورسوله أعلم لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يدري ما أحدث الناس بعده كما في حديث الحوض حين يقول أصحابي أصحابي فيقال له: أنك لا تدري ما أحدث الناس بعدك أ.هـ.

* * *

٢- باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] الآية.

عن عُبادة بن الصَّامت قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ شَهِدَ أن لا إِلَـه إلا الله وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ وأنَّ مُحمَّداً عبدُه ورسولُه وأنَّ عيسى عبْدُ الله ورسُوله وكلمتُه ألقاهَا إلى مريم وروح منه. والجنَّةَ حقٌّ والنارَ حق: أدخلَه الله الجَنَّةَ على ما كان من العمَل. أخرجاه. ولهما في حديث عتبان: (فإن الله حَرَّمَ عَلَى النار من قال: لا إله إلا الله يَبْتَغِي بذلك وَجْهَ الله).

وعن أبى سعيد الخدْرى عن رسول الله ﷺ قال: «قال مُوسَى يا ربِّ عَلِّمْني شيئًا أذكُرُك وأدعوكَ به. قال: قُلْ يا مُوسَى لا إلـه إلا الله. قال يا ربِّ. كُلُّ عبَادكَ يقولون هذَا. قال: يا مُوسَى لَوْ أن السَّمَـوات السَّبعَ وعَامرَهُنَّ - غيري - والأرَضينَ السَّبعَ في كفَّة ولا إلـه إلا الله في كفه: مَالَت بِهِنَّ لا إله إلا الله» رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

وللترمذي - وحسنه - عن أنس سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: قال الله تعالى: يا ابْنَ آدَم. لَوْ أتيتَنِي بقُرَاب الأرضِ خَطَايَا ثُمَّ لقيتني لا تُشركُ بي شَيْئًا لأتيتُكَ بقرابهَا مَغْفِرةً.

أراد المؤلف به بيان شيء من فضل التوحيد وأنه أعظم الأعمال في تكفير الذنوب لأنه أساس الأعمال وأصلها، والأعمال لا تصح إلا بعد وجوده.

وذكر ذلك حتى يعرفه المؤمن ويكون أكثر إقبالاً عليه وتشوقًا إليه.

قال تعالى ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾.

آمنوا: أي وحدوا الله وأخلصوا له العبادة وآمنوا أنه آلههم الحق.

ولم يلبسوا: أي لم يخلطوا. إيمانهم: توحيدهم. بظلم: بشرك بل أخلصوا له العبادة سبحانه. لهم الأمن: أي الأمن الكامل والهداية الكاملة إذا كان إيمانهم سليمًا من الظلم كله دقه وجله؛ من الشرك وما دونه من المعاصي وظلم العباد.

ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وجاؤا إليه وقالوا: أينا لَم يظلم نفسه ـ ظنوا أنه أراد جنس الظلم أي جنس المعاصي ـ فقال ألم تسمعوا قول العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم ـ فالمراد من الظلم هنا: الشرك بخلاف المشرك فلا أمن له بل إلى النار. والمؤمن إذا سلم من الشرك الأكبر والأصغر وظلم العباد فله الهداية الكاملة والأمن التام في الدنيا والآخرة، أما إذا سلم من الشرك الأكبر ولم يسلم من الأصغر ومن بعض الذنوب فهدايته ليست كاملة وأمنه ليس كاملاً بل ربما يدخل النار بالمعاصي التى مات عليها. وفي شرح الآية بيّن الرسول أن الهداية والأمن المطلقين لا يحصلان إلا بترك الشرك، لكن دلت النصوص الأخرى أن الهداية لا تكمل والأمن لا يكمل إلا بالسلامة من المعاصي وظلم العباد وسائر أنواع الشرك الأصغر.

* حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا (من شهد أن لا إله إلا الله . . أدخله الله الجنة. .).

(روح منه): أي روح من الأرواح التي خلقها وأوجدها.

فمن شهد هذه الشهادة صادقًا أدخله الله الجنة، وهذا من الأحاديث المطلقة الدالة على فضل التوحيد، ولكن دلت النصوص على أن هذا الإطلاق مقيد بمن أدى حق هذه الشهادة، أي شهد شهادة جازمة بذلك تتضمن إخلاص العبادة له وحده عن صدق وانقياد ومحبة وقبول وإخلاص ومتابعة لنبيه عليه الصلاة والسلام وطاعته فمن شهدها ولطخها بالمعاصي والسيئات أو قالها باللسان فقط وهو يشرك بقلبه أو عمله كالمنافقين فهذه لا تنفعه الشهادة، بل لابد من قولها والجزم بها والعمل بالأوامر وترك النواهي واتباع النبي عليه الصلاة والسلام وإلا فتكون الشهادة مدخولة لا تقوى على دخول صاحبها الجنة إلا بمشيئة الله.

قوله (على ما كان من العمل): أي على ما كان عنده من صلاح وفساد إذا قالها عن إخلاص وإيمان. ولكن هذا الدخول قد يكون من أول وهلة، أي: يدخل ابتداء إذا مات على توبة وعمل صالح وصدق، وقد يكون بعدما يبتلى به

من جزاء السيئات والمعاصي وبعدما يمحص في النار ويعذب فيها ثم مصيره إلى الجنة فمن أدى هذه الشهادات وقضى ما عليه دخل الجنة من أول وهلة، وإذا مات على المعاصي فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة.

* (ولهما من حديث عتبان: فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

أي: من قالها عن صدق ومات عليها أدخله الله الجنة فإن كانت له ذنوب فهو تحت المشيئة إن لم يتب من ذنوبه كما تقدم.

ومن قالها مخلصًا وصادقًا فإنه لا يصر على السيئات لأن إيمانه وإخلاصه الكامل يردعه عن الاستمرار والإصرار على المعاصي فيدخل الجنة ابتداء مع أول الداخلين، والدليل على أن من مات على المعاصي فهو تحت المشيئة قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ودلت الأحاديث أن أهل المعاصي معرضون للوعيد وأنهم يدخلون النار ثم يخرجون بشفاعة الأنبياء وغيرهم. لأنهم قد أضعفوا توحيدهم ولطخوه بالمعاصي.

وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة وهو المعنى الصحيح الذي خلا عنه أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرهم.

- من كفر بالله فإن الشهادة لا تنفعه وإن شهدها.

* حديث أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى يارب علمنى شيئًا. .» يدل الحديث على فضل هذه الكلمة وأنها ذكر ودعاء لقوله علمنى شيئًا أذكرك وأدعوك به ـ فهي ذكر لله لأن فيها شهادة له بالوحدانية. ودعاء: لأن قائلها يرجو ثوابها وهكذا كل الأذكار من تسبيح وتحميد وحوقلة.

وفي هذا دلالة على شأن هذه الكلمة فهي ذكر ودعاء وأن فضلها قد يخفى على بعض الأنبياء.

وعظم هذه الكلمة في: أنها تحقق العبادة لله وحده وتثبتها لله وتنفيها عن غيره ومعناها: أن لا معبود بحق إلا الله، فنفيها: إبطال لجميع الآلهة.

قوله (وعامرهن غيري):

استثنى سبحانه نفسه لأنه العظيم وهو سبحانه فوق العرش وبه قامت السموات والأرض وهو الذي أمسكهن وأقامها وأقام العرش والكرسي وبه قامت هذه المخلوقات قال تعالى ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ وقوله ﴿**إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾.

في كفه: أي كفة الميزان، ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى.

مالت بهن لا إله إلا الله: مالت بهن أي بمعناها وليس بأجرامها. فبالنظر إلى المعاني والحقائق فإن كلمة التوحيد أعظم وأصدق وأهم معنى فترجح على غيرها.

وكما رجحت الكلمة بالمخلوقات فإنها ترجح بمن قالها على جميع سيئاته وذنوبه.

* حديث أنس مرفوعًا «قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني . . .» يدل على أن الخطايا كلها مرجوحة في مقابل حقيقة كلمة التوحيد كما ترجح بالمخلوقات العظيمة.

قرابها بالظلم: أي ما يقارب الأرض ويملأها.

ووجه العلماء هذا الحديث بوجهين :

الأول: أن هذا في حق من قالها صادقًا مخلصًا لم يصر على سيئة أصلاً فأحكم هذه الكلمة حتى صار مؤديًا لجميع الواجبات تاركًا لجميع المنهيات مستقيمًا على شرع الله في كل شيء.

الثاني: إن هذا في حق من قالها وأتى إلى الله تائبًا من خطاياه مقلعًا عن ذنوبه وسيئاته فكل الخطايا ساقطة بهذه الكلمة.

- وهذا المعنى لابد منه لأن الأيات والأحاديث دلت على أن أهل المعاصي على خطر وأنهم متوعدون بالنار، والنصوص لا تعارض بعضها بعضًا ولا تتناقض بينها فوجب حمل النصوص على هذا المعنى حتى لا يكون هناك اختلاف وتناقض.

وقد تعلق بعض الجهلة بمثل إطلاقات هذه النصوص وظن أن هذه الكلمة تكفي بمجرد القول وإن ترك الواجبات وفعل المعاصي. وهذا مخالف لما أجمع عليه

سلف الأمة من أنه: لابد من أداء الواجبات وترك المحرمات والوقوف عند حدود الله.

ومن ترك الواجبات أو فعل المنهيات فإنه معرض لعقوبة الله تعالى وإن كان يقول هذه الكلمة ويوقن بها.

وإن أتى بما ينقض إسلامه صار مرتدًا كافرًا لم تنفعه هذه الشهادة.

فلابد من تحقيق هذه الكلمة ومستلزماتها وإلا فهو على حظر إن لم يتب.



٣- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]. وقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حصين بن عبد الرحمن قال: « كنتُ عند سعيد بن جُبير فقال: أيكم رأى الكوكبَ الذي انقضَّ البارحةَ؟ فقلت: أنا، ثم قلت أما أني لم أكن في صلاة: ولكني لُدغتُ. قال فما صنَعْتَ؟ قلت: ارتقيتُ. قال: فما حَمَلكَ على ذلك؟ قلتُ: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم ؟ قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رُقْيةَ إلاّ مِنْ عيْنٍ أوْ حُمَة، قال أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرَّهْطُ، والنبيَّ معه الرجل والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحَدٌ إذ رُفع لي سوادٌ عظيم فظننت أنهم أمتي: فقيل لي هذا موسى وقومُه فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبْعون ألفًا يَدْخُلُون الجنة بغير حساب ولا عذَاب». ثم نهض فدخل منزله فخاضَ الناسُ في أولئك، فقال بعضُهم فلعلهم الذين صَحِبُوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا. وذكرُوا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ولا يكْتَوُوْن ولا يَتَطيَّرُون. وعلى ربهم يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يَجْعَلَنِي منهم فقال: أنت منهم. ثم قال رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: سبقك بها عكاشة.

تحقيق التوحيد: تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

فمن حقق توحيده وسلم من الشرك والبدع والمعاصي دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب. لأن الشرك الأكبر ينافي التوحيد، والأصغر ينافي كمال الواجب، والبدع والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه.

قال تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ﴾.

وصف الله خليله إبراهيم بصفات عظيمة تدل على كمال توحيده وإيمانه ومن ذلك.

الأولى (أمة): أي داع إلى الخير وحده صابراً عليه كما فسره العلماء. فيدعو إلى الحق ويستقيم عليه وحده عند فساد الناس وهذان الأمران مجتمعان في إبراهيم فإنه على الحق ليس عليه غيره ومع ذلك يدعو إليه وحده.

الثانية (قانتًا لله): أي مطيعًا لله مستمرًا على الخير فمن معاني القنوت: دوام الطاعة، وقنوته كان لله وحده فلم يكن يعبد الله غيره.

الثالثة (حنيفًا): المقبل على الله المائل إليه، من الحنف: وهوالميل، فهو مائل عن عبادة غير الله إلى الله عز وجل ثم أكد الكلام بقوله (ولم يك من المشركين). بل فارقهم في عقيدته وأعماله وأقواله ومنزله، وهذا الذي ينبغي للمسلم: أن يستقيم ويحقق توحيده، ولا يخالط المشركين ويكثر سوادهم.

فلهذه الصفات حقق إبراهيم عليه الصلاة والسلام كمال التوحيد.

قال تعالى: ﴿ **والذين هم بربهم لا يشركون** ﴾.

هذا من صفات أهل التوحيد والإيمان أنهم كانوا موحدين لله مخلصين له خالصين من الشرك مع عبادتهم وخوفهم لله وهذا كمال التوحيد.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد حقق التوحيد فنبينا ﷺ أولى أن يكون قد حققه لأنه أتقى الناس لله وأخلصهم له.

* **حديث حصين**: كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب..

قوله (غير أني لم أكن في صلاة): فيه صفة من صفات السلف وهي أنهم كانوا يتحرزون من إظهار أعمالهم خوفًا من الرياء وتزكية النفوس.

لدغت: اللدغ إذا أصابته لسعة من عقرب أو حية ونحوهما.

ارتقيت: طلبت من يرقيني لأن الرقية ينفع الله بها من اللدغ.

قوله (فما حملك على ذلك): فيه السؤال عن الدليل فيما فعله وفيه حال السلف وما هم عليه من المذاكرة وطلب الدليل.

قال: عن بريدة بن الحصيب: فهذا الحديث جاء عن بريدة وجاء مرفوعًا إلى

النبي ﷺ. وقوله (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) لأنه عمل بعلم ولم يعمل بجهل أو بخلاف ما تعلمه.

قوله (لا رقية إلا من عين أو حمة): فيه أن من أصيب بأذى الحيّات والعقارب أو بأمراض أخرى فلا بأس بأن يرقي نفسه أو يسترقي. وليس المراد في الحديث الحصر بل حمله العلماء على الأولوية أي لا رقية أولى من رقية العين والحمة لأن الأحاديث دلت على جواز الرقى من غير العين والحمة كحديث « لا بأس بالرقي ما لم تكن شركًا» وثبت أنه ﷺ رقى ورقُي فدل على جواز ذلك ولا بأس من نفع المريض وقراءة الآيات عليه.

والعين: من عين العائن ونظرته ونفسه.

والحمة: لدغ الحيات والعقارب.

وهذه الرقية نافعة بالنص والتجارب. فيستحب لمن أُصيب بها أن يرقى نفسه أو يرقيه أخوه لحديث «من استطاع أن ينفع أخاه بشيء فليفعل» والاسترقاء وطلب الرقية تركه أولى لكن إن احتيج إليه فلا بأس ولهذا استرقى النبي ﷺ لأولاد جعفر كما سيأتي، وقال لأمهم أسماء «واسترقي لهم » لما أصابتهم العين.

ثم ذكر سعيد ما هو أفضل منه ـ أي من الاسترقاء فقال حدثنا ابن عباس. .

وقوله (عرضت على الأمم): كان هذا ليلة الإسراء على الصحيح.

وقوله والنبي وليس معه أحد ومنهم من قتله قومه، وهذا يدل على أن المتبعين للحق قليل كما قال تعالى ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾. وقوله: هذا موسى وقومه: يدل على فضل موسى وأنه استجاب له كثير من بني اسرائيل.

قوله (فنظرت فإذا سواد عظيم): وفي رواية: أنهم سدوا الأفق، وفي رواية: أنهم سدوا الأفق الآخر، وهذا يدل على عظم هذه الأمة وأنهم أكثر أتباعًا لأنهم آخر الأمم ونبيها خاتمها، وهم نصف الجنة أو ثلثاها كما جاء في الحديث.

قوله (ومعهم سبعون ألف): جاء في أحاديث أخرى أن مع كل واحد سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب لكمال تقواهم وإيمانهم واستقامتهم. وكلما كان العبد أكثر استقامة كان أسهل لدخول الجنة.

قوله: فخاض الناس فيهم: أي في صفاتهم، ومن هم. ففيه شرعية البحث والمذاكرة والنظر في النصوص للعلم.

قوله (هم الذين لا يسترقون): لا يطلبون من يرقيهم. وفيه: فضل ترك سؤال الناس والاستغناء عنهم حتى في طلب الرقية، لكن لم ينه عن هذا وإنما ذكر فضل تركه فقط فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس من العلاج وتركه أفضل عند عدم الحاجة.

قوله (ولا يكتوون): وتركه أفضل عند عدم الحاجة لأنه نوع تعذيب. فإذا تيسر دواء غيره فهو أولى فإن دعت الحاجة إليه فلا كراهة لحديث (الشفاء في ثلاث: كية نار أو شربة عسل أو شرطة محجن) وفي لفظ: (وأنهى أمتى عن الكي) فالنهي للتنزيه لا للتحريم. ولهذا كوى بعض أصحابه وكوى الصحابة من أمراض أصابتهم فهو جائز عند الحاجة إليه والاستغناء عنه بدواء آخر أفضل ـ فهو من صفات السبعين ـ فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس.

قوله (ولا يتطيرون): الطيرة هى الشرك وهي التشاؤم بالمرئيات أو المسموعات حتى يرده ويوقفه عن حاجته. وهذا منكر منهى عنه وقال (الطيرة شرك) وقال (ولا ترد مسلمًا). وقال «إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك».

والحسنات: هي النعم. والسيئات: هي المصائب والنقم. وأخبر أن كفارة الطيرة أن يقول «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك».

قوله (وعلى ربهم يتوكلون): أي يعتمدون على الله ويفوضون أمورهم إليه فهذا شأنهم فهم معتمدون على الله واثقون به ويعلمون أنه لن يصيبهم إلا ما كتب لهم ومع ذلك يبتعدون عن الشركيات وعن المكروهات كالكي والاسترقاء ثقة به واعتمادًا عليه وحرصًا على كمال دينهم وسلامته.

فهذه صفات السبعين وهم الذين أدوا الواجبات، وتركوا المحرمات والشركيات، واعتمدوا وتوكلوا على الله، وفوضوا أمورهم إليه مع أخذهم بالأسباب المباحة لطلب الرزق والتجارة وأنواع الطب المباح لكن تركوا ما يحوجهم إلى الناس

كالاسترقاء أو ما فيه نوع تعذيب إذا لم يضطروا إليه، وابتعدوا عن بعض المباحات التي فيها نقص فجازاهم الله بأن أدخلهم الجنة لا حساب ولا عذاب.

فائدة: الرقية بدون سؤال من الأسباب المباحة أما مع السؤال فتركه أولى عند عدم الحاجة لحديث « لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا ».

والرقية جائزة بشروط ثلاثة:

الأول: أن يكون بلسان معروف المعنى.

الثاني: وأن لا يكون فيه محذور من جهة الشرع.

الثالث: أن يفعل ذلك طلبًا للشفاء من الله ولا يعتمد على الأسباب نفسها فلا بأس بالرقية على هذا الوجه.

وهكذا يجوز الكي عند الحاجة وتركه أولى لما فيه من التعذيب.

أما الأسباب الأخرى فلابد منها فلابد أن يأكل ويشرب ويطلب الرزق ويعمل الواجبات طلبًا للجنة ويحذر من الوقوع في المحرمات. أما الأسباب التي فيها نقص كالكي والاسترقاء فتركه أولى.

قوله (سبقك بها عكاشة): قال سداً للباب لئلا يقوم من ليس أهل. وأخذ العلماء منه جواز استعمال المعاذير وهي الكلمات التي تسد بابًا لا يحمد عقباه فيستعملها من دون أن يتعرض لإهانة أحد أو فضيحته.

- ولا بأس للإنسان أن يرقي نفسه، لكن طلب الرقية من الغير تركه أولى.
- ولا بأس بأن يسأل الإنسان من أخيه أن يدعو له كما جاء في الحديث: لا تنسانا من دعائك.
- اتقاء الأسباب الضارة مشروع: كعدم الورود على المريض مرضًا معديًا.

فيتقي مخالطته كما في الحديث (لا يورد ممرض على مصح) وإذا خالطهم ثقة بالله واعتمادًا عليه لإيضاح الإيمان فلا بأس. وثبت أنه ﷺ أكل مع مجذوم وقال «قل باسم الله ثقة بالله».

ولا بأس بالقراءة على الماء والنفث فيه وثبت أن النبي ﷺ نفث في ماء لثابت ابن قيس. والقراءة تكون مما تيسر من القرآن أ.هـ.

٤- باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديث «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكَ الأصغر. فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فقال: الرِّياءُ».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: (من مَات وهو يَدْعُو من دُون الله نداًّ دَخَلَ النَّار). رواه البخاري.

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (منْ لقى الله لا يشركُ به شيئا دخل الجنَّة. ومنْ لقيهُ يشرك به شيئًا دخل النار).

أي باب وجوب الخوف من الشرك فيجب على المؤمن أن يخاف من الشرك والمعاصي يبتعد عنها وخاصة الشرك ولا يأمن من ذلك على نفسه.

والشرك: هو تشريك غير الله في العبادة أيًا كانت ولذلك سمي شركًا. والعبادة حق لله وحده.

وأعظم من ذلك صرف العبادة كلها لغير الله عز وجل.

وقوله تعالى: **﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾**.

فيه بيان عظم الشرك وخطورته لأن الإنسان إذا مات عليه لم يغفر له بل هو خالد مخلد في النار بخلاف سائر المعاصى فهي تحت المشيئة إن شاء عذبه بقدرها ودخل الجنة وإن شاء غفرها له، أما الشرك فقد قال تعالى **﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴾**.

وقول الخليل عليه السلام **﴿ واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام ﴾**.

هذا فيه خطورة الشرك لأن سيد الأنبياء بعد نبينا كان يخاف من الشرك فوجب التأسي بهم وأن نكون أولى بالخوف منهم.

الأصنام: هو ما نحت على صورة كصورة إنسان أو حيوان.

والمشركون كانوا أقسامًا: منهم من يعبد الأصنام ومنهم من يعبد غير الأصنام

كالشجر والبحر والشمس والقمر وكلهم يجمعهم؛ صرف العبادة لغير الله عز وجل ويطلق على الصنم: وثن.

وفي الحديث «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » فسئل عنه فقال: «الرياء».

هذا الحديث رواه أحمد بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ وله شواهد قوية كلها تدل على وجوب الحذر من الرياء وأنه خطير ويبتلى به الصلحاء لأنه قد يرائي بصلاته وزكاته وأمره بالمعروف ونهيه وفي الحديث: (من سمع سمع الله به ومن راءىٰ راءىٰ الله به). وتمام الحديث: «أن الله يقول للمرائين يوم القيامة اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء» والرياء مصدر راءى يراءى.

وفي الحديث: «يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم. فيجب على الإنسان أن يخلص لله وحده.

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار » رواه البخاري.

ندًا: أي شبيهًا ونظيرًا يدعوه مع الله ويستغيث به فهو مخلد في النار وفي رواية قال ابن مسعود: وقلت: (ومن مات وهو لا يدعو من دون الله ندًا دخل الجنة) أي من مات على التوحيد دخل الجنة. فاتخاذ الأنداد من أسباب دخول النار، ومعنى اتخاذ الأنداد تشريك غير الله معه في العبادة من الصالحين والأنبياء أو شجرًا أو حجرًا.

ولمسلم عن جابر مرفوعًا « من لقى الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ».

وفيه خطورة الشرك ووجوب الخوف منه وحذره.

والحديث فيه موجبتان: الأولى: أن من لقى الله لا يشرك به دخل الجنة.

والثانية: أنه من لقيه وهو مشرك دخل النار.

ولذا في لفظ آخر قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بالموجبتين» قالوا: بلى، قال: «من لقى الله . . .».

٥- باب الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ـ الآية ﴾ [يوسف: ١٠٨].

عن ابن عباس رضى الله عنهما (أنَّ رسُولَ الله ﷺ لما بَعَث مُعاذاً إلى اليمن قال له: إنك تأتي قومًا منْ أهل الكتاب. فَلْيَكُن أوَّلَ ما تدْعُوهُم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله).

وفي رواية: (إلى أن يُوحِّدوا الله ـ فَإِنْ هُمْ أطاعُوك لذلك فأعلِمْهم أن الله افتَرَض عليهم خمسَ صلَوات في كلِّ يَوْمٍ وليلة، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلِمْهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخذُ من أغنيائهم فَتُرَدُّ على فُقرائهم. فإن هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم. واتَّق دعْوَةَ المظْلُوم. فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أخرجاه.

ولهُمَا عن سَهْل بن سَعد رَضِيَ الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال يوم خيبر (لأُعْطِيَنَّ الرَّاية غداً رَجُلا يُحبُّ الله ورَسُولَه. ويحبه اللهُ ورسولُه، يفتحُ الله على يدَيْه. فبات الناسُ يَدُوكُون ليلَتَهُم. أيهُم يُعْطاهَا. فلما أصبَحُوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ كلهُم يرجو أن يُعطَاهَا. فقال: أَيْنَ علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عَيْنَيْه. فأرسلُوا إليه فأُتي به فبصق في عيْنَيْه ودعَا له... فبَرِئ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية: فقال: انفذ على رسلكَ، حتى تنزل بسَاحتهم، ثم أدعُهُم إلى الإسلام. وأخبرْهُم بمَا يجبُ عليهم منْ حَقِّ الله تعالى فيه فوالله لأن يهدِيَ الله بك رَجُلاً وَاحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ) يَدُوكُون: أي يخوضون.

أي باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله لأنها أختها.

فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد وإلى اتباع الرسول وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم.

وهذا أخذه المؤلف من الكتاب والسنة كقوله ﴿ادع إلى سبيل ربك﴾ ﴿قل هذه سبيلي﴾، ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾.

فالواجب أن يدعو العلماء إلى توحيد الله والإخلاص له وترك الإشراك معه وإلى الإيمان بالرسول ﷺ وتصديقه واتباع ما جاء به وترك مخالفته.

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة ﴾ الآية.

الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولأمته. أي: قل هذه طريقتي ومحجتي التي أنا عليها من توحيد الله والإخلاص له وإيتاء الزكاة وغيرها. وهذا هو سبيل الله وصراطه المستقيم وهو الإسلام والهدى والإيمان.

- أدعو إلى الله: لا إلى ملك أو حظ أو مال أو شأن من شئون الدنيا بل إلى توحيد الله واتباع شرعه.

- على بصيرة: على علم وهدى. ومن اتبعني: أي أتباعي كذلك يدعون على بصيرة. فأتباعه هم أهل البصائر والعلماء الذين يدعون ودعوتهم على بصيرة، ومن لم يدع إلى سبيل الله من العلماء فليس من أتباعه على الحقيقة. فأتباعه لا يسكتون ولا يدعون على جهالة كما قال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ أي بالعلم وهذه هي وظيفة الأنبياء كلهم والعلماء والصالحين وهذا هو الواجب على من عنده علم ويدعو في كل مكان في المسجد وغيره ويصبر.

* حديث ابن عباس أن رسول الله لما بعث معاذاً إلى اليمن قال ...

قال له: أي أوصاه.

- إنك تأتي قومًا أهل كتاب: أي فليسوا جهالاً بل عندهم علوم وشبه فنبهه ليستعد لهم وليبلغ لهم أمر الله.

قوله (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله): أي لا تلتفت إلى شبههم وعلومهم بل بلغهم التوحيد وإلى أن يوحدوه وأن يخصوه بالعبادة دون غيره كالعزير وعيسى وأحبارهم ورهبانهم. وفي رواية (عبادة الله) وهي تفسير لشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله (فإن أطاعوك لذلك): أي اخلصوا العبادة وتركوا غيره.

قوله (فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات..) هذا يدل على أن

الشرك يدعى أولاً إلى التوحيد فإن أجاب دعي إلى الصلاة فإن أجاب وأقامها دعى إلى الزكاة التي تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء. وذكر الفقراء هنا يدل على أنهم أهم الأصناف لذلك بدأ بهم في الآية ﴿إنما الصدقات للفقراء..﴾.

قوله «فإن أجابوك فإياك وكرائم أموالهم»: أي لا تأخذ الأموال الثمينة عندهم بالقوة بل الوسط ـ لأن الأموال: كريمة ومتوسطة ولئيمة ـ إلا إن طابت نفسه بالكريمة فهو أفضل لهم.

- واتق دعوة المظلوم: أي احذر أن تظلمهم فيدعون عليك فتصيبك دعوتهم. ودعوة المظلوم مستجابة.

وإنما اقتصر على هذه الأمور الثلاثة لأنها أهم الأمور، ومن أجاب إليها أجاب إلى ما سواها من الحج والصوم وغيرها لأنهم إذا استجابوا للأمور الثلاثة المتقدمة فإن إجابتهم عن إيمان وقناعة وهذا الإيمان يدفعهم إلى بقية الشرائع.

ولذلك اقتصر عليها القرآن ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة..﴾ ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة..﴾ وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى...» فالأصول الثلاثة هذه هي الأم.

* ولهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: لأعطين الراية غداً رجلاً..

وخوض الصحابة في من يعطاها وتمنيهم لها لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر تعيين أن هذا الرجل بعينه يحب الله ويحبه الله ففيها زيادة فضل ومزية ولذا قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ.

قوله فبرأ: فيها فائدتان: إنها من علامات صدق النبي عليه الصلاة والسلام. وهى آية من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة.

قوله على رسلك: أي على مهلك.

قوله بساحتهم: أي بقربهم ليكون أشجع للمؤمنين وأرهب للأعداء. أما البعيد فيضعف الجند ويشجع الأعداء.

قوله ثم ادعهم إلى الإسلام: ولو كانوا قد دعوا من قبل من باب إقامة الحجة

وكمال المعذرة وهذا يدل على أنه ينبغي الاهتمام بالدعوة والحرص عليها قبل القتال ولو كانوا قد دعـوا لعلهم يهتدون. ويستحب التكرار إذا دعت الحاجـة خاصة من اليهود الذين يعرفون الحق ولكنهم يحبون الدنيا ويحسدون المؤمنين.

قوله ففتح عينه: منقبة أخرى لعلي رضي الله عنه.

قوله (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك..) فيه عظم الدعوة إلى الله وأنها أهم من القتال بل هي المقصودة من القتال ولذلك بعثت الرسل .

قوله (حمر النعم): بضم الحاء وسكون الميم جمع أحمر. لا بضم الحاء والميم جمع حـمار فليس مـراد هنا. والمعنى أي خيـر لك من الإبل الثمـينة. وفيـه بيان أهميـة الدعوة وتعليم الناس، فإن أبوا قـوتلوا ليكف شرهم ولا يكونوا عقـبة في طريق غيرهم إلى الإسلام ويستعان بهم وبأموالهم في سبيل الله.

قوله (لأن يهدي الله بك رجلاً واحد خـير لك): لا مانع من أن يعم الحديث حتى المسلم العاصي.

ويجوز أن يبـاغتهم بالحـرب إن بلغتهم الدعـوة كما أغـار النبي ﷺ على بني المصطلق وإن تكررت الدعوة قـبل القتال للمصلحـة فلا بأس. وفيه جـواز القسم وإن لم يحلف لتأكيد أمـر، وقد يشرع ويستحب عند الحاجة لتأكـيد أمر حتى يعلم المخاطب أنه حق.

* * *

٦- باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية [الاسراء:٥٧].

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وقوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وفي الصَّحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ قَالَ لا إله إلا الله وكفرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُون الله حرُم مالُهُ ودمُهُ، وحسَابه عَلى الله عَزَّ وَجَلَّ).

وشرح هذه الترجمة ما بَعدَهَا مِنَ الأبواب.

فيه أكبر المسائل وأهمها ـ

وهي تفسير التوحيد ـ وتفسير الشهادة.

وبيَّنهُما بأمُور واَضحَة ـ

منهَا آية الإسرَاء. بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها أية براءة بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

وبين أنهم لم يُؤمَرُوا إلا بأن يَعبُدُوا إلهاً واحداً مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاءهم إياهم.

ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَا تَعبُدُونَ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فاستثنى من المعبودين ربه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال (وجَعَلهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾.

ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ؟.

ومنها قوله ﷺ (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله).

وهذا من أعظم ما يُبيِّنُ معنَى ـ لا إله إلا الله ـ فإنَّه لم يجعل التلفظ بهَا عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه، فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

بين المؤلف هنا تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بما يوافق لفظها وبما يضادها لأن الشيء يعرف بضده وقد قيل: والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء، وذكر هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد، وحقيقته: هو إفراد الله بالعبادة وتخصيصه بها وبجميع أنواع العبادة. فتؤمن بذلك بالقلب وتعمل بالجوارح.

وقوله (وشهادة أن لا إله إلا الله): هذا من باب عطف الدال ـ الشهادة ـ على المدلول وهو التوحيد. فالتوحيد هو شهادة بالله وحده.

قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾.

وقبله قوله ﴿ قل ادعو الذين زعمتهم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ فدعاء من لا يملك كشف الضر أو جلب النفع من دون الله هذا هو الشرك وضده هو التوحيد فقوله (قل ادعوا) أي قل يا محمد هؤلاء ادعوا الذين زعمتهم ـ توبيخ لهم وتقريع ـ أي ادعوا آلهتكم الذين تدعون من دون الله «فلا يملكون كشف الضر» أي الضر كله (ولا تحويلاً) ولا تحويله من مكان إلى آخر من

الرأس إلى الرجل مثلاً. بل هذا لله وحده هو الكاشف للضر والجالب للنفع.

وقوله (أولئك الذين يدعون): أراد بهم من يدعو الملائكة والأنبياء والصالحين لذلك قال (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أي هؤلاء المدعون صالحون في أنفسهم ومع ذلك لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، فغيرهم من الأصنام من باب أولى. والوسيلة: التقرب إلى الله بالطاعة « أيهم أقرب » أي يجتهدون إلى الله بتوسلهم وعبادتهم له بأنواع الطاعات ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ لأنهم عبيده ويرجونه ويخافونه فكيف يستغاث بهم؟.

وقوله ﴿ وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ هذا تفسير التوحيد بمعناه فقوله ﴿ إنني براءٌ مما تعبدون ﴾ كقولنا: لا إله، وقوله إلا الذي فطرني كقولنا إلا الله، والفطر: الخلق.

فبين أن معنى التوحيد البراءة من عبادة غير الله وإنكارها واعتقاد بطلانها والرد عليها والتوحيد لله وحده بجميع أنواع العبادات.

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب:

وقوله ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ﴾.

بين أن هذا شرك بالله، وأن التوحيد هو أن لا يعبد إلا الله لا راهب ولا حبر ولا نبي ولا صالح. خلافًا لما فعله اليهود من اتخاذ الأحبار. والنصارى من اتخاذ الرهبان أربابًا بحيث يحلون ما أحلوا ويحرمون ما حرموا بدون دليل وإن خالف شرع الله وما جاءت به الرسل فصاروا بهذا عابدين لهم. لأنهم أطاعوهم فيما خالف الشرع وقدموه عليه كما في حديث عدى بن حاتم (فتلك عبادتهم) ويصير بذلك مشركًا كما قال بعد ذلك (سبحانه عما يشركون).

فائدة: بالنسبة لأصحاب القبور فقد اتخذوهم القبوريين آلهة من دون الله والواجب أن يبين لهم الحق لأن عملهم كفر من أعظم الكفر ولكن لا يقتلون بل يبين لهم الحق لإقامة الحجة عليهم فإن أصروا قتلوا إن يسر الله من يقيم ذلك عليهم.

قوله ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ الآية.

هذا أيضًا من تفسير التوحيد بضده وهو عن الذين يتخذون أندادًا يحبهم ويعظمهم ويدعوهم ويستغيث بهم أو يحبهم حبًا خاصًا يقتضي عبادتهم من دون الله هذا هو الشرك الأكبر، والله ذم هؤلاء وتوعدهم بالنار كما في آخر الآيات ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾.

* وفي الصحيح مرفوعًا: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل» رواه مسلم عن سعد بن طارق الأشجعي.

وقوله «من قال لا إله إلا الله» وفي رواية: من وحد الله. وهذا يبين معنى لا إله إلا الله وأنه هو التوحيد.

قوله (كفر بما يعبد من دون الله): أنكر كل ما يعبد من دون الله واعتقد ذلك بقلبه «حرم ماله ودمه»: أي صار مسلماً ويلزمه القيام بشرائع الله.

«وحسابه على الله»: فإن كان صادقاً فله الجنة وإن قالها بلسانه لا بقلبه فهو من المنافقين حكمه حكمهم في الدنيا وفي الآخرة في النار أهـ.

* * *

٧- باب من الشرك لبس الخيط والحلقة ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى ﴿ قُل أَفَرَءيتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إن أرَادَنيَ الله بُضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ الآية [الزمر:٣٨].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رَجُلاً في يده حلقة من صفر فقال: ما هذه؟ قال: منَ الوَاهنَة. فقال: انزعها فإنَّهَا لا تزيدُك إلاَّ وهنًا. فإنك لَو مُتَّ وَهِيَ عَلَيكَ ما أفلحْتَ أبداً) رواه أحمد بسند لا بأس به.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً «مَنْ تَعَلَّق تَمِيمَةً فَلاَ أتمَّ الله لهُ، ومن تَعَلَّق ودَعَةً فلا ودع الله لهُ».

وفي رواية « مَن تَعَلَّق تَمِيمَة فقد أشركَ».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله ﴿ وَمَا يؤمِنُ أكثرُهُم بالله إلا وَهُم مُّشرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦].

لم يقرأ على الشيخ.

* * *

٨- باب ما جاء في الرقي والتمائم

في الصحيح: عن أبي بشير الأنصاريِّ رضي الله عنه: (أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا أن لا يبقين في رقبة بَعيرٍ قِلادةٌ مِنْ وَتَرٍ أو قلادة إلا قُطعَتْ).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرُّقَى والتَّمَائمَ والتِّوَلَة شِركٌ» رواه أحمد وأبو داود.

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «من تَعَلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إلَيه» رواه أحمد والترمذي.

«التمائم شيء يُعَلَّق على الأولاد يَتَّقُونَ به من العين. ولكن إذا كان المعَلَّقُ من القرآن فَرَّخصَ فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه، منهم ابن مسعود رضى الله عنه.

«والرقى» هي التى تُسَمَّى العَزَائم، وخَصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك فقد رَخَّصَ فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و«التِّولة» هي شئ يَصنعُونه يَزعُمُون أنه يُحَبِّبُ المرأة إلى زوجها والرجلَ إلى امرأته.

وروى أحمد عن رُويفع قال: قَالَ لي رسُولُ الله ﷺ: «يا رُويفِع لَعلَ الحياة ستطُول بك فأخبرْ النَّاسَ أنَّ مَن عقَد لِحيَتهُ أو تقَلَّدَ وَتراً أو استنجى برجيع دآبة أو عظم فإن مُحمَّداً بَرِئٌ منه».

وعن سعيد بن جبير قال:

«من قطع تَميمَة إنسَانٍ كَانَ كعدل رقبة» رواه وكيع.

وله عن إبراهيم قال:

كانوا يكرهُونَ التمائم كلَّها من القرآن وغير القرآن.

أي النصوص التي جاءت في تحريم التمائم والتفصيل في الرقي. لأن التمائم جنسها محرم وبعضهم فصل فيها والصحيح أنها محرمة.

والتمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين. وقد دلت الأدلة على تحريمها كما سيأتي للمريض وللأطفال.

أما الرقي ففيها تفصيل: فتجوز بثلاثة شروط :

١- أن يكون بلسان مفهوم المعنى بالآيات والدعوات المعروفة.

٢- أن لا يخالف ذلك المعنى الشرع.

٣- أن لا يعتقد أنها تنفع بسببها وفي الحديث « لا بأس بالرقية ما لم تكن شركًا» وتقدم.

التولة: عرفها المؤلف. ويصنعونه بالجن والشياطين ويسمونها سحر وعطف وصرف، والسحر كله كفر للآية ﴿ **إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾.

* قوله في حديث عبد الله بن حكيم مرفوعًا (من تعلق شيئا وكل اليه) رواه أحمد.

فينبغي للإنسان أن يعتمد ويتوكل على الله وحده فهذا هو الذي ينفعه مع الأخذ بالأسباب كما في الحديث «احرص على ما ينفعك واستعن بالله» فالأخذ بالأسباب أمر لازم من الأدوية والاستقامة على شرعه وتعاطي أسباب العافية وطلب الرزق. فالأسباب ما بين الواجب والجائز فعليه أن يتعاطى الأسباب الجائزة والواجبة والأخذ بذلك لا يقدح في التوحيد بل تركها يقدح في العقل والتوحيد جميعًا.

وإن كانت التمائم من القرآن فرخص فيه بعضهم كعبد الله بن عمر ومنعه آخرون كعبد الله بن مسعود وهو الصواب وعليه تدل الأدلة والواجب حسم هذا الباب والقضاء عليه بالكلية سدًا لذرائع الشرك وعملاً بالأدلة.

ولا ينبغي تعليق التمائم على الأولاد بل يعوذهم كما عوذ النبي ﷺ الحسن والحسين بأدعية التعوذ.

والكتابة في الورق والصحن فعله بعض السلف وروي عن ابن عباس ولكن لم يثبت ولا بأس به ذكره ابن القيم في الزاد ولكن الرقية أفضل.

والتداوي لا بأس به وفي الحديث « عباد الله تداوا ولا تتداوا بحرام » وأصح ما فيه الاستحباب، وقال مالك هو مستوى الطرفين أي مباح.

وروى أحمد عن رويفع قال: (يا رويفع لعل الحياة تطول بك فأخبر الناس. .)

وفيه أربع مسائل:

قوله: (لعلها تطول بك): هذا على سبيل الظن والرجاء وقد طالت به الحياة ومتع.

١) قوله (عقد لحيته): قال أهل العلم معناها: جعدها ونفشها للتكبر والتعاظم وقيل أي صففها تصفيفًا يناسب ميوعة النساء وأهل التخنث.

أما العناية بها تسريحًا وتكريمًا فهذا ليس منه. والحديث فيه لين وله شواهد.

٢) قوله (تقلد وترًا): وهو ما يتخذ من الأمعاء وغيره وكانت الجاهلية تقلدها الإبل والصبيان حذر العين.

قوله (أو استنجى برجيع دابة أو عظم): جاءت الأحاديث بالنهي عن الاستنجاء بهما لأنهما لا يطهران وفيه تشبه بالجاهلية.

قوله (فإن محمدًا بريئ منه): وعيد شديد وليس معناه أنه مشرك مثل قوله (ليس منا من ضرب . . .) والشاهد هو النهي عن تعليق الأوتار وغيره مما يظنه ينفع كالخيط، والواجب أن يتعلق بالله وحده.

* وعن سعيد قال: «من قطع تميمة من إنسان كان له كعدل رقبة» رواه وكيع.

وكيع ابن الجراح توفى سنة (١٩٦).

وفي الحديث فضل قطع التمائم وأنه كعدل رقبة لأنه سيخلص هذه الرقبة من النار ومن الشرك فيكون أفضل من عتق الرقبة، وكلام سعيد قد يكون له سند وفيه وسع لأن سعيد قد لا يقول هذا برأيه، ويحتمل أنه من اجتهاده وفقهه.

ولكنه عند التحقيق والنظر هو أعظم من عتق الرقبة التي يكون بها الإنسان حرًا وتعليق التمائم من الشرك الأصغر وخطره عظيم وقد يجر إلى الشرك الأكبر.

- وله عن إبراهيم قال كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن.

إبراهيم بن يزيد النخعي من التابعين من أصحاب أصحاب ابن مسعود يكرهون التمائم وكذلك شيخهم ابن مسعود يكره ذلك لسببين :

١- لعموم الأحاديث الناهية.

٢- سدًا للذرائع الموصلة إلى الشرك. فلا يعلق مصحف ولا آيات منه ولا أحاديث ولا طلاسم ولا عظام فكله شرك.

مسألة: لا يجوز وضع مصحف في السيارة بقصد حفظها من المصائب وكذا وضع حيوانات في السيارة وغير ذلك أ.هـ.

* * *

٩- باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى ﴿ أَفَرَءَيتُمُ اللَّـٰتَ وَالعُزَّىٰ ﴾ الآيات[النجم: ١٩-٢٢].

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر! وللمشركين سِدرَةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط! فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط! كما لهم ذات أنواط. فقال ﷺ: «الله أكبر إنها السنن قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَومٌ تَجهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] **لَتركَبُنَّ سُنَنَ من كان قبلكُمْ» رواه الترمذي وصححه.**

نحوها: كالقبر والصنم وغيرها.

التبرك: هو طلب البركة منها كما يفعل عباد القبور والأحجار والأصنام.

وترك الحكم ليأخذه الطالب مما ذكره من النصوص. والحكم هو أنه قد أشرك لما سيذكر المؤلف. وهذا التبرك من فعل الجاهلية وجاء الإسلام فأبطل ذلك.

فمنهم من أجاب وهم قلة ومنهم من أعرض وهم كثرة **﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾** أما في الجزيرة فقد أجاب أكثرهم بعدما فتح الله مكة.

* قوله تعالى: **﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذًا قسمة ضيزى ﴾**.

أفرأيتم: أي هل نفعت هذه الأصنام أم ضرت، والمعنى أنها لم تنفع ولم تضر وكانوا يسألونها ويتبركون بها ويستغيثون فأبطل الإسلام ذلك. وكان العزى لأهل مكة ومن سايرهم، مناة لأهل المدينة، اللات لأهل الطائف ومن نهج منهجهم. وقد أزيلت هذه الأصنام يوم فتح مكة لكن أخبر النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث قال: « لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى ».

* حديث أبي واقد قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن. . .

قوله (نحن حدثاء عهد بكفر): قريبو عهد بكفر وهذا كالعذر أي ولهذا جهلنا الأمر.

سدرة: شجرة النبق.

يعكفون: يقيمون عندها.

ينوطون: أي يعلقون بها أسلحتهم للتبرك والبركة التي تحصل لها على زعمهم أنها تكون امضى للسيف وأقوى وأشد.

اجعل ذات أنواط: أي لنتبرك بها ونعلق سيوفنا عليها للبركة.

الله أكبر: وهذا من عادته ﷺ إذا رأي شئ ينكر قال الله أكبر أوسبحان الله وهذا من السنة أن يقول الإنسان ذلك عند الإنكار وكذلك عند الإعجاب بشي كما في الحديث: «وأنتم ربع أهل الجنة» قالوا فكبرنا..

إنها السنن: أي عبادة الأشجار والأحجار والتبرك بها هي السنة المعروفة عند الناس السابقين أي هي طريقة الناس قديمًا ودائمًا.

بنو إسرائيل: وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبنوه هم اليهود ومن انتسب إلي إسرائيل.

اجعل لنا آلهًا كما لهم آلهة: هذا قاله اليهود لموسى فرد عليهم موسى وذكرهم بالتوحيد، وهكذا هؤلاء تأسوا بأولئك جهلاً ولم يكونوا يعرفون حكمه لأنهم حدثاء عهد بكفر.

وهذا يدل على أن الاعتبار بالحقائق لا بالألفاظ لأنهم طلبوا شيئًا يغظمونه ويتبركون به كما فعل بنو اسرائيل وإن اختلفت ألفاظ الفريقين فالباطل باطل وإن اختلفت الألفاظ.

لتركبن سنن من كان قبلكم: بضم السين وبفتحها. وهي الطرق.

أي أن هذه الأمة ستبتلى بما ابتليت به الجاهلية من عبادة القبور والأحجار والتبرك بها وهذا حصل. وقاله عليه الصلاة والسلام أخبارًا بأنه سيقع فحذر منه وأن الواجب هو الثبات على عبادة الله وحده كما فعل الأنبياء أما التبرك بالقبور وغير الله فهذا من فعل اليهود والنصارى وأهل الكفر.

١٠- باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى ﴿ قُل إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَاي ومَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

وقوله ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢].

عن عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لَعَن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غيَّرَ منار الأرض» رواه مسلم.

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النارَ رجل في ذباب. قالوا كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرَّ رجُلان على قوم لهم صَنَمٌ لا يجوزه أحدٌ حتى يقرِّب له شيئا، فقالوا لأحدهما قرِّب فقال ليس عندي شيء أقرب قالوا له: قرِّب ولو ذُبابًا، فقرَّب ذُباباً، فخلَوا سبيله فدخل النار وقالوا للآخر قَرِّب. فقال: ما كنتُ لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة» رواه أحمد.

أي ما جاء فيها من الوعيد وأنها من الشرك الأكبر كما دلت الأدلة.

وقوله تعالى ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾.

قل: يا محمد. نسكي: ذبحي، وقيل: تعبدي ويشمل الذبح.

ومحياي ومماتي: أي ما أحيا عليه وأموت من العبادات والأعمال هي لله وحده وتبين الآية أن الذبح عبادة وأنها لله ولا تنبغي أن تكون لغيره.

ومن ذبح لغيره من الجن والأصنام والقبور فهو كمن صلى وعبد غير الله لأن كل من الصلاة والذبح عبادة حيث قرن الله بينهما. وبذلك (أمرت) أمره الله.

قوله تعالى ﴿ فصل لربك وانحر ﴾.

أي صلى لله وانحر له شكراً على نعمة نهر الكوثر.

وهذا يدل على أن النحر والصلاة عبادة لأنه أمر بهما فمن نحر لغير الله فقد

أشرك.. كما لو صلى لغير الله فمن ذبح للصنم والجن وغيرهم فقد أشرك.

* عن علي رضي الله عنه قال حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات «لعن الله من ذبح لغير الله ..».

من ذبح لغير الله: وبدأ بها لأن الشرك أعظم الذنوب. واللعن: الطرد وهذا يدل على أنه من الكبائر الشركية كما في الحديث «أكبر الكبائر الشرك بالله».

لعن من لعن والديه: وهذا من الكبائر أيضًا. ومن هذا أن يلعن غيره فيلعن الآخر والديه فيكون سببًا في لعن والديه كما في حديث عبد الله بن عوف في الصحيحين «من الكبائر شتم الرجل والديه». فقيل يا رسول الله وهل يسب الرجل والديه؟ قال: «نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه».

وسب الناس من الكبائر إن كان بغير حق وفي الحديث «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وروى البخارى من حديث ثابت بن الضحاك قول الرسول عليه الصلاة والسلام «لعن المؤمن كقتله» وأخرج مسلم «أن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة».

آوى محدثًا: أي من أوى أهل البدع والمعاصي ونصرهم فإنه ملعون.

وكذلك من يمنع من إقامة الحد عليهم، ومن يقيم البدع وينصرها.

غير منار الأرض: المنار: المراسيم سميت منار لأنها تميز وتبين وتعرف حدود الأراضي وتدل عليها فالذي يغيرها ملعون لأنه قد يؤدي إلى المشاكل والمصائب والمقاتلة.

ويلحق به ما يرشد الناس إلى الطرق والبلدان والمياه فمن غيرها فهو داخل في اللعن.

حديث طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ «قال دخل الجنة رجل في ذباب..».

وطارق من صغار الصحابة وغالب روايته من طريق أبي موسى الأشعري فهى مرسلة صحيحة فمرسل الصحابي صحيح.

قوله في ذباب: أي بسبب ذباب فـ «في» للسببية.

الصنم: ما نحت على صورة وماليس له صورة يقال له وثن ويطلق على الأصنام أوثان أيضًا.

لا يجوزه: لا يتعداه.

ليس عندي شي أقرب: فاعتذر بأنه ليس معه شي يقرب ولم ينكر ذلك فطمعوا فيه فأمروه أن يقرب ولو ذبابًا فدخل النار. وهذا يدل على أن التقريب للأصنام وغيره ولو كان شيئًا حقيراً فهو من الشرك لأن الذبح والتقرب لا يجوز إلا لله.

وقال الآخر: ما كنت أقرب شيئًا إلا لله: فهذا أعرض وبين أنه لا يجوز وامتنع فدخل الجنة. وهذا يحتمل أمرين:

الأول: إما أن شريعتهم ليس فيها عذر بالإكراه ولهذا لم يأخذ بالرخصة ويتخلص من شرهم.

الثاني: يحتمل أنه ترك الرخصة وأخذ بالعزيمة لقوة إيمانه ويقينه فقتلوه.

وفي شريعتنا أن من أكره على الشرك ففعل ما أكره عليه بقصد التخلص من شرهم ولم يطمئن قلبه بذلك فلا حرج لقوله تعالى ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ فيأخذ بالرخصة حتى لو قال الكفر بلسانه.

وحديث طارق رواه أحمد في الزهد وذكره ابن القيم بسند جيد أ.هـ.

* * *

١١- باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى ﴿ لا تَقُم فِيهِ أَبَدًا ﴾ الآية [التوبة:١٠٨].

وعن ثابت بن الضحَّاك رَضي الله عنه قال: «نَذَر رجلٌ أن ينحر إبلاً ببوانه، فسأل النبي ﷺ فقال: هَل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيدٌ أعيَادهم؟ قالوا: لا. فقالَ رسولُ الله ﷺ: أَوف بِنَذرِك، فإنه لا وَفَاء لنَذر في معصية الله ولا فيما لا يَملُك ابنُ آدم» رواه أبو داود واسناده على شرطهما.

أراد به لا يجوز للمؤمنين التشبه بأهل المعاصى ولا مشاركتهم في أماكن المعصية وفي أماكن تعبدهم ولو بغير الذبح حتى لا ينسب إليهم ويشاركهم. فإذا ذبح في مكان يذبح فيه لغير الله فإنه قد ينسب إلى أهل السوء أو يظن به السوء والمؤمن يبتعد عن ذلك كله.

﴿ لا تقم فيه أبدًا ﴾.

هذا نزل في مسجد الضرار وهو مكان بناه المنافقون لإيواء بعض الكفرة ليكون حصنًا لهم يجتمعون ويتعاونون فيه على قتال النبي ﷺ ولكنهم أخفوا ذلك وأظهروا أنهم بنوا المسجد لإيواء الضعفاء والمساكين في الليالي الشاتية وطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يصلى فيه قبل ذهابه إلى تبوك ولكنه أجله إلى عودته ولما رجع وقبل المدينة أنزل الله ما يفضحهم ويبين مقاصدهم الخبيثة، فبعث النبي عليه الصلاة والسلام من يهدمه.

فمعنى ذلك أن محلات الكفر والضلال يجب التخلص منها وعدم إبقاؤها حتى لا يستعان بها على الفساد. واستدل به المؤلف على أن المكان المعد للذبح لغير الله أو الصلاة لغير الله أو معد للفسق والمعاصي يجب أن لا يبقى حتى لا يفسد المسلمين ولا ينسب إليهم وهذا قياس جلي والقياس ثابت كما في حديث: «فلعل ابنك هذا نزعه عرق».

عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة فسأل الرسول..

بوانة: موضع بأسفل مكة ويقال أنها بالقرب من ينبع.

هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد وهل كان فيها عيدًا من أعيادهم، خاف الرسول أن يكون خص المكان لأنه كان فيه وثن من أوثان الجاهلية أو عيدًا من أعيادهم وهذا سيتأس بهم. فدل على أن المؤمن ينبغي أن يبتعد عن أماكن الجاهلية ولا يخصها بعبادة حتى لا يتشبه بهم وينسب إليهم. فلما أخبره أنه ليس فيها ذلك أمره أن يوفي بنذره فيدل على وجوب الوفاء بالنذر إذا لم يكن قصده مشابهة المشركين والكافرين وأشباههم.

فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله: كما إذا نذر أن يشرب الخمر فلا يوفي بنذره. واختلف العلماء في الكفارة على قولين:

الأول: إنه نذر باطل ولا كفارة عليه واحتجوا بعمومات ولكن جاء عدة أخبار تدل على وجوب الكفارة وهو الراجح وهو القول الثاني.

ولا فيما لا يملك ابن آدم: كأن يقول لله على أن اعتق عبد فلان فنذره باطل.

فالشاهد: أن المؤمن لا ينبغي أن يفعل الطاعة في مكان من أماكن الجاهلية والشرك والمعاصي إلا إذا غير هذا المكان وصار مسجدًا مثلاً أو بيتًا وزالت عنه آثار الجاهلية ونسيت فلا بأس كما أمر النبي بهدم اللات وبناء مسجد مكانه فهذا يجوز التعبد فيه.

مسألة: إذا حصلت شرك أو بدع عند القبور فهذا لا يمنع من زيارتها الشرعية كما إذا حصلت المعصية في المسجد فلا يمنع من الصلاة فيه.

مسألة: أمر عمر بن الخطاب بالصلاة في الكنيسة لأنهم اتخذوها معبدًا لله لكن عبادتهم ليست مستقيمة وفيها شرك وباطلة فلعل الشبهة أنهم اتخذوها معبدًا لله أو أن المؤمنين مضطرون للصلاة فيها عند مرورهم منها عند أسفارهم فقد يكون للضرورة أو لأن جنس عبادة الله متفق عليها بينهم فيما يتعلق بالصلاة.

١٢- باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧].

وقوله ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي الصَّحيح عنْ عَائشةَ رَضيَ الله عنْهَا أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «من نذر أن يُطيع الله فليُطعِه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

أي من الشرك الأكبر وهو شرك الجاهلية وشرك عباد القبور الذين ينذرون لهم ويستغيثون بهم ويطلبون الحوائج منهم وهو الذي بُعث الأنبياء لإنكاره وهذا كان عند الجاهلية. أما الشرك الأصغر فهو كالرياء والحلف بالنبي وقول ما شاء الله وشئت.

وقوله ﴿ يوفون بالنذر ﴾.

هذا مدح للمؤمنين الذين يوفون بالنذور الطيبة الشرعية وهذا يدل على أن النذر عبادة يجب صرفها لله واختصاصه بها سبحانه وحده.

وقوله ﴿ وما انفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾.

أي أن الله يعلم نفقات العباد ونذورهم فيجازيهم عليها إن كانت لوجه الله. فدل على أن النذر عبادة حيث قرنه بالنفقات والنفقة عبادة إذا كانت لوجه الله كالصدقات على الفقراء والمساكين.

فإذا نذر وتصدق بشيء للقبر أو لبناءه أو لآلهة معينة صار هذا شركًا أكبر بالله.

وفي الصحيح (من نذر أن يطع الله فليطعه ومن نذر أن يعص فلا يعصيه).

وهذا يدل على أن الطاعات يجب الوفاء بنذورها كأن يقول لله على كذا. أما المعاصي فلا يجوز الوفاء بنذورها.

١٣- باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦].

وعن خولة بنت حكيم رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نزل منزلاً، فقال أعوذُ بكلمات الله التامَّاتِ من شَرِّ ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك. رواه مسلم.

أي من الشرك الأكبر كبقية العبادات التي صرفها لغير الله شرك أكبر. لأن الاستعاذة عبادة كما قال تعالى ﴿ واستعذ بالله ﴾ ﴿ قل أعوذ برب الناس﴾﴿ قل أعوذ برب الفلق﴾ أما الاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر القادر فلا بأس بها كما تقول لرجل: أعوذ بك من غلامك أو ابنك وقال تعالى ﴿ **فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه** ﴾ أما الاستعاذة بالميت أو الغائب أو الحجر والصنم فهو شرك أكبر.

قال تعالى ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا ﴾.

نزلت هذه في أناس كانوا يعوذون بسادات الجن وكانت العرب في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قالوا (نعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه فهو كان من عمل الجاهلية والواجب صرف كل هذا لله.

زادوهم: الواو للجن والهاء للإنس أي زاد الجنُ الإنس رهقًا وهو الخوف والذعر. فلما خاف الإنس من الجن تكبرت الجن.

وقال بعض السلف: الواو للإنس والهاء للجن أي زاد الإنس الجنَ رهقًا ويكون معنى الرهق الطغيان والاستكبار.

وكلا المعنيين حق فإذا تعوذ الإنسان من الجن فهو تعظيم للجن ويزاد الجن طغيان وتكبر ويقابله خوف الإنس من الجن.

وقد ذكرهم الله في معرض الذم فيجب ترك فعلهم.

وعن خولة بنت حكيم قالت سمعت الرسول ﷺ «من نزل منزلاً فقال. . .

يستحب قول هذا الدعاء عند نزول منزل ويدل على فضل هذه الاستعاذة وأنها من أسباب العافية من شر الجن والإنس. وهكذا إذا ركب الطائرة أو السيارة أو القطار ونحوه. أن يقول ذلك. وجاء في حديث إنه يستحب تكرارها ثلاثًا وكان النبي ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا.

كلمات: معناها أي كلمات الله النافذة والكونية التي لا راد لها.

وقال بعض السلف المراد بالكلمات: الشرعية وكلمات القرآن لأنها كلمات عظيمة شريفة وهى كلام الله. وكل هذا حق وكلها وصف له سبحانه.

فكلامه الكوني نافذ وكلامه الشرعي أفضل الكلام.

وفيه توسل بصفات الله. وبهذا استدل السلف على أن كلام الله غير مخلوق لأنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله فدل الحديث على أن الكلام صفة من صفات الله ويجوز التعوذ به وإنه غير مخلوق.

لم يضره شيء: فنكرة في سياق النفي فتعم كل شيء.

وهذه يدل على فضلها فينبغي العمل بها.

والتعوذ بغير الله وبغير صفاته لا يجوز بالاجماع وأنه شرك.

* * *

١٤- باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [يونس:١٠٦- ١٠٧].

وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ الآية [العنكبوت:١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآيتين [الأحقاف: ٥].

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢].

وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال النبي ﷺ: إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله.

هذا من عطف العام على الخاص لأن الاستغاثة من الدعاء فكل مستغيث داعي وليس كل داع مستغيث فالمستغيث هو الذي يدعي عند شدة الكربة كما في الآية ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على ـ﴾ ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ فالذي يستغيث عند المرض أو خوف الغرق بالرسول أو البدوى فهذا من الشرك الأكبر. وكان المشركون في الجاهلية يخلصون الدعاء لله في الشدائد لأنهم يعلمون أنه لا ينجي إلا الله، أما مشركي زماننا فشركهم في الرخاء والشدة فالاستغاثة عند الشدائد شرك أكبر ويسمى مستغيثًا وإذا دعاهم في الرخاء يسمى داعيًا وكلاهما شرك والأدلة هي:

﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا لمن الظالمين﴾.

أي من المشركين (والكافرون هم الظالمون) فبين الله أن من دعا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر وهذا وصف عام لجميع المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر استغلالاً. ونفعها وضرها بالله وحده. وأن من دعا غير الله فهو مشرك ويستثنى من ذلك دعاء الحي القادر الحاضر فهذا ليس بشرك بإجماع المسلمين كأن يدعوه ليحمل معه أو يسلفه أو . . .

﴿ وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو ﴾.

هذا على أن الخلق غير قادرين على جلب النفع أو دفع الضر ولهذا فكيف يعبد غيره وهو عاجز.

﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾.

أمر بالطلب من الله وحده والاستغاثة به وحده وعبادته وحده وأن لا يطلب من غيره شيئًا ويستثنى ما تقدم.

﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾.

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله لأنه لم يفلح في الدنيا، وفي الآخرة خاسر إلى النار. ووصف المدعون من دون الله بأربعة أوصاف:

الأولى: عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة.

الثانية: أنهم غافلون عن دعائهم إما لأنهم أموات أو جماد لا احساس له أوحى مشغول أو ملك لا علم له بمن دعاه.

الثالثة: أنهم يكونون أعداء لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة: أنهم يبرؤن من عبادتهم وينكرونها.

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾.

أي لا أحد يستطيع فعل ذلك فلا ينبغى طلبه إلا من الله.

وروى الطبراني بإسناده أنه كان هناك منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم.. جاء في رواية أخرى أنه عبادة بن الصامت وأن المنافق هو عبد الله بن أبي بن سلول وفي إسناده بعض الضعف.

والصحابة لم يطلبوا الغوث بالرسول ﷺ إلا لأنه يقدر أن يخلصهم منه أما بقتله أو بحبسه وهم يعلمون أن الإستغاثة بالحي القادر جائزة ولهذا ذهبوا إليه.

قوله لا يستغاث بي: يحتمل أمرين:

الأول: أن النبي ﷺ لا يستطيع قتله لأنه كان ممنوعًا من قتله لأجل أن لا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه فامتنع من قتله.

الثاني: يحتمل إن صح الخبر أنه قال سدًا للذريعة وإن كان قادرًا على التخلص منه، حتى لا تقع منهم هذه الكلمة في أمور لا يقدر عليها.

والشاهد: أنه لا يستغاث بغير الله إلا فيما يقدر عليه الحي.

١٥- باب في التوحيد وغربة الدين

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخلُقُ شَيئًا وَهُم يُخلَقُونَ، ولاَ يَستَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ الآية [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونه مَا يَملكُونَ من قطمير﴾ الآية [فاطر: ١٣].

وفي الصحيح عن أنس قال: «شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكُسرت رباعيته، فقال: كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيّهم؟ فنزلت: ﴿لَيس لَكَ مِنَ الأمرِ شَيء﴾.

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر «اللهم العن فلانا وفلانًا: بعدما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فأنزل الله ﴿لَيس لَكَ مِنَ الأمرِ شَيء﴾[آل عمران: ١٢٨].

وفي رواية: يدعوا على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيس لَكَ مِنَ الأمرِ شَيء﴾.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأقرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: يا معشر قريش، أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفيةُ عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون ﴾.

أراد المؤلف من هذه الترجمة بيان ما عليه أهل الشرك في عهد النبي ﷺ عندما دعاهم وقاتلهم فيبين بطلان ما هم عليه من عبادة غير الله ممن هذا وصفه. وبهذا الوصف فإنهم لا يستحقون العبادة. وهذا استفهام للتوبيخ فهم لا يخلقون حتى النملة بل هم مخلوقون فكيف ينفعون غيرهم فهم إما جماد لا يعقلون أو أحياء لا يسمعون أو أموات لا يجبون من دعاهم وفي الآية صفات هؤلاء المعبودون من دون الله وهي أربعة.

١- أنهم لا يخلقون شيئًا.

٢- أنهم مخلوقون مربوبون.

٣- أنهم لا يستطيعون لهم نصراً.

٤- إنهم لا ينصرون أنفسهم.

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾..

وصف الله آلهتهم بأربع صفات كذلك:

١- أنهم لا يملكون شيئًا حتى القطمير.

٢- أنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم.

٣- أنهم لو سمعوا ما استجابوا.

٤- أنهم يكفرون يوم القيامة بشرك هؤلاء. فهذه حالة المشركين وإنهم خسروا الدنيا والآخرة.

وفي الصحيح عن أنس قال شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته فقال:

فإذا كان هذا أفضل الخلق وأقرب الناس منزلة وأفضل الأنبياء لم يستطع أن يدفع عن نفسه ولا عن أصحابه وهم أفضل القرون وإذا كان كذلك لم يستحق أن يعبد من دون الله ويشرك به معه. وما حصل يوم أحد للنبى وأصحابه بذنوبهم إنما حصل لحكمة بالغة وهو أن محمداً وأصحابه لا يدفعون الضر عن أنفسهم فكيف يدعون فغيرهم من باب أولى، والذنب هو مخالفة من كانوا على جبل الرماة أمر الرسول عليه الصلاة والسلام وتنازعهم.

حديث ابن عمر أنه سمع الرسول ﷺ يقول (اللهم العن فلانًا...

وقد دعا على الحارث بن هشام وصفوان بن أمية وغيرهم من صناديد قريش ثم أسلموا وهداهم الله ولم تقبل دعوته فيهم ولا لعنه لهم. فإذا كان سيد ولد آدم لم تقبل دعوته فيهم ولم يضرهم فكيف غيره بل الله أعلم بأحوال عباده.

حديث أبي هريرة لما نزلت **﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾..**

لا اغني عنكم من الله شيئًا: فنفى أن تنفعهم قرابتهم له ﷺ إذا لم يؤمنوا بل

أرشدهم إلى شراء الإيمان واتباع ما جاء به الرسول وأن هذا هو طريق النجاة وهو التوحيد. وهذا هو الذي ينفعهم أما ماله فيستطيع أن ينفعهم به. فعلم أن العبادة تكون لله وحده ولا يجوز طلبها من غيره وإذا كان النبي لا يستطيع نفع أحد دون الله فغيره أولى.

وهذا فيه رد على المشركين الذين يطلبون النفع من غيرهم ويقولون ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ فسمى الله فعلهم هذا عبادة وأمر نبيه بمقاتلتهم. لأنهم مشركون.

أما دعاء الحي القادر فلا بأس به بل هي أسباب حسية معقولة ليس لها تعلق بالغيب ولا هي متعلقة بالأموات.

* * *

١٦- باب قول الله تعالى

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

وفي الصحيح عن أبي هُريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوانٍ ينفذهم ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع: هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها. وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا: فيصدقُ بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء).

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر وتكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال ـ رعدة شديدة ـ خوفا من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقُوا وخروا لله سُجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة: كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربّنا يا جبريل فيقول قال: الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل).

﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾.

أراد المؤلف بهذا الباب الرد على عباد القبور والأصنام والملائكة وغيرها، فبين أن الملائكة إذا كانت تخاف الله وتخاف عذابه إن خالفت أمره فكيف تستحق أن تعبد من دون الله ؟ ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾.

فزع: أي زال عنهـا الفزع والمراد بهم الملائكة كـما في الأحـاديث. فإذا ردت إليهم عقولهم قالوا ماذا قال ربكم.

قالوا الحق: أي قال بعضهم لبعض هو الحق أي قال ربنا كذا وقال كذا.

فإذا سمعت الملائكة قول الرب عز وجل تضرب بأجنحتها خضعانًا.

خضعانًا: بفتح الخاء وضمها: أي خاضعين وجلين مشفقين بين يدي الله تعالى كأنه ضـرب سلسلة الحديد على الصفـوان. فيسـمع مسـترق السمع من الجن هذا الكلام من الملائكة وهم بعضهم فوق بعض فليلقيه بعـضهم إلى بعض حتى يلقيها الآخر للكاهن أو السـاحر. وتأتيهم الشهب فـربما أدركتهم قبل أن يلقوهـا للساحر وربما أدركتهم بعد أن يلقوها. وهذا امتحـان من الله لعباده وإلا لو شاء ما استرقوا شيئًا فـتجتمع هذه الكلمـات عند الساحر فيكذب مـعها مائة كذبـة. ويصدقون في واحدة فيقال الناس فـيما بينهم أليس قد قال لنا يوم كذا كذا. فـيصدقون الكلمات الكثيرة بسبب واحد صـحيحة فلا ينبغي الاغترار بهـؤلاء وتصديقهم. لأن صدقهم أما بمشـاهدة شيء في الدنيا وتنـاقله عن طريق الشيـاطين بعضهم لـبعض. أو عن طريق مسترق السمع. فالواجب عدم الإصغاء إليهم وإن صدقوا أحيانًا.

وعن النواس بن سمـعان رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة» أو قال...

سمعان: بفتح السين وكسرها.

فيـكون أول من يرفع جبـريل: ويقرأ جـبرائيل أيضًا وهو أول من يفـيق لأنه أشرف الملائكة وهو الرسـول بين الله ورسله. وكلما مر من سـماء سأله ملائكتـها والمسترقون يسمعون هذا الكلام بين الملائـكة وربما حفظوا شيئًا وألقوه إلى السحرة والكهنة وربما احرقوا ولم يبلغوا شيئًا حسب مشيئة الله.

فالواجب عبـادة الله وحده لا حق فيه للملائكـة ولا للرسل ولا غيرهم وهذا فيه دلالة على خوف الملائكة وفزعهم منه.

ومن صدق بـأن الكاهن يعلم الغيب فـهو كـافر. وفي الحـديث ثبوت صـفة

الكلام لله والإرادة وفيه فضل الملائكة.

وفيه أن الشياطين تسترق السمع وكان هذا قبل النبوة فلما بعث النبي ﷺ شدد عليهـم في الاستمـاع. فلما مـات صارت تسـتمغ فتـارة تصيـبهم الشـهب قبل أن يستمعوا وتارة بعد أن يستمعوا.

* * *

١٧- باب الشفاعة

وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِر بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام: ٥١].

وقوله ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيتين [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبق إلا الشفاعة: فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده - لا يبدأ بالشفاعة أولاً - ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقال أبو هريرة له ﷺ «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه» فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن، ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. أهـ كلامه.

قد تكلم الناس في الشفاعة واضطربت أقوالهم فيها وشذ المبتدعة بعقيدة باطلة لذلك احتاج العلماء إلى الكلام فيها ويخصوها بالكلام حتى يعرف المؤمن الحق

ويعتقد الاعتقاد الصحيح فيها. فباب الشفاعة أي بيان الشفاعة المثبتة والمنفية والحق والباطل فيها.

وقوله تعالى **﴿ وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾**.

أي أنذر يا محمد بالقرآن الذين يخافون أن يحشروا ويجمعوا إلى ربهم وهم المسلمون لأن الكفار لم يسمعوا ولم يستجيبوا. والإنذار: الاعلام مع التخويف.

(ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع). هذه الشفاعة الباطلة فإن العباد ليس لهم ولى ولا شفيع بالكلية إلا من رضي الله قوله وعمله فقط لأن الكفار يظنون أن لهم أولياء وشفعاء ينقذوهم من النار ولا يدخلون النار بسببهم حتى عبدوهم من دون الله (وقالوا هؤلاء شفعاؤُنا عند الله) وقالوا **﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾** فبين سبحانه أنه ليس للعباد ولي ولا شفيع دونه وأن شفاعة الكفار هذه باطلة وإن الشفاعة الحق هى التي يأذن الله فيها لأنبياءه وأولياءه وأهل طاعته في أهل التوحيد والإيمان لا في أهل الكفر والنفاق.

(لعلهم يتقون): أي لأجل أن يتقوا الله ويستقيموا على دينه إذا عرفوا أنه لا شفاعة ولا ولاية من دونه فيوحدونه ويحذرون من غضبه.

﴿ قل لله الشفاعة جميعًا ﴾.

أي قل للناس إن الشفاعة لله وحده وقبل هذه الآية أنكر على من أدعى الشفعاء من دون الله من المشركين الذين يدعون الشفاعة لأصنامهم وأحجارهم وغيرها من المعبودات فنفى الله ذلك كما قال تعالى **﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ ﴿ وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾** فالشفاعة له وحده سبحانه وإنما يشفع الأنبياء والصالحون بإذنه وهو يعطيها من يشاء فيجب أن تطلب منه. ويقول: اللهم شفع فيّ نبيك وشفع فيّ عبادك الصالحون.. ولا مانع أن تطلب الشفاعة من الحي في حياته كأن يقول: يا رسول الله اشفع لي أن يرزقني الله أو تقول للرجل الصالح اشفع لي أن يغفر الله لي وادع أن يهديني. أما الأصنام

والأموات والغائب كالملائكة فلا يطلب منهم ذلك لأنه لا يشعر ولا يدري عنك ولا يطلع على الغيب كما يعتقده الجهال والكفار.

﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ﴿وكم من ملك لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله..﴾.

فبيّن سبحانه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه وأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى وأن الملائكة لا تملك إذنًا في الشفاعة بل يملكها الله وحده.. فإذا كان هذا حال الملائكة والأنبياء والرسل لا يشفعون إلا بعد الإذن والرضا عن المشفوع فغيرهم من الصالحين والأطفال والأفراد من باب أولى.

ثم أن المتعلقين بهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله يتعلقون بهم لأربعة أشياء بينها الله **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وماله منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده﴾** . . [سبأ: ٢٢ - ٢٣] والأربعة هي:

١- الملك: فيظنون أنهم يملكون شيئًا والله هو المالك وحده.

٢- الشركة: فيظنون أنهم شركاء لله.

٣- المظاهرة: أي المساعدة والمعاونة مع الله تعالى وهو باطل.

٤- الشفاعة: فيظنون أن آلهتهم تشفع لهم.

فبين أنه لا شفاعة إلا بإذنه ولا شفاعة مستقلة كشفاعة الدنيا، ففى الدنيا قد يشفع له من أجل خوفه منه أو من أجل حاجته إليه والله عز وجل منزه عن ذلك.

قال أبو العباس - هو شيخ الإسلام -: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون.

هو شيخ الإسلام.

قوله (فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منفية يوم القيامة كما نفاها القرآن: فمنهم من يظن أن أصنامهم ومن يدعونهم يشفعون لهم شفاعة ملزمة

وإنهم لا يحتاجون إلى إذن وإنهم تقبل شفاعتهم فيهم وأنهم يدخلون الجنة بسببها ولا يدخلون النار ولكن هذا في حق من يؤمن بالآخرة. أما من لم يؤمن بالآخرة منهم فهم يعبدونهم ليشفعوا لهم في أمور الدنيا ومصالحها من حصول الرزق وما أشبهه فمقاصدهم بالشفاعة مقاصد عاجلة. وأكثر العرب لا يؤمن بالآخرة.

قال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله فقال «من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

فأسعد الناس بشفاعته هم الموحدون وفي الحديث «إن لكل نبي دعوة... وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة وهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا» فبين أنها لا تنفع أمته إلا من وحد الله، أما من مات على غير الإسلام فلا شفاعة لهم وحقيقته: أنه سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم.

قوله المقام المحمود: هو ثابت للنبى ﷺ وهو الذي يحمده عليه الأولون والآخرون قال تعالى ﴿ عسى ربك أن يبعثك مقامًا محمودًا ﴾ فهى الشفاعة العظمى على الصحيح.

وقيل أن المقام المحمود هو أن الله يجلسه معه على العرش يوم القيامة لكن في صحته ـ الحديث ـ نظر والمشهور الأول.

والشفاعة تفضل على المشفوع لأنه تفضل من الله بنفع هذا المشفوع فيه حتى دخل الجنة. فهذه هي حقيقة الشفاعة.

وهذا رد على أهل القبور بل هم محرومون من الشفاعة لاتباعهم بما يحرمهم من الشفاعة.

* * *

١٨- باب قول الله تعالى
﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾.

وفي الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبدُ الله بن أبي أمية وأبو جهل. فقال له: يا عمِّ قل لا إله إلا الله كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ. فأعادا. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك، فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

هذا الباب ذكره المؤلف ليبين أن الرسل وأفضلهم محمد ﷺ لا يملكون شيئًا من أمر الله إلا ما أعطاهم الله وأنهم لا يستطيعون هداية البشر إلا من هداه الله فهم مربوبون مقهورون ليس لهم من التصرف إلا ما جعل الله لهم. لذلك لا يصلح أن يعبدوا من دون الله فهم كسائر البشر لكن الله فضلهم بالرسالة والنبوة فلهم مزيد شرف ولكن هذا لا يجعلهم شركاء لله في تصريف الكون أو علم الغيب وهداية من شاءوا. فإذا كان الرسول لم يستطع هداية عمه أبي طالب وأبي لهب فهذا يدل على أن الهداية بيد الله ويجب طلبها منه سبحانه.

فهذا باب بيان أن الهداية التي مضمونها قبول الحق والرضى به لا يملكها أحد غير الله.

أما الهداية التي بمعنى الدلالة والإرشاد والبيان فهي بيد الرسل واتباعهم من العلماء والدعاة كما قال تعالى ﴿ **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾ أي ترشد وتدل وتدعو إلى صراط مستقيم ولكن لا يستطيعوا أن يؤثروا في القلوب حتى تقبل الحق بل هي لله.

وفي الصحيح عن ابن المسيب قال لما حضرت أبي طالب الوفاة جاءه رسول

الله ﷺ.

لما حضرت: أي علامات قرب الأجل. المسيب بالكسر وبالفتح وهو أشهر عند المحدثيين.

جاءه رسـول الله: ليدعوه دعوة خـاصة عند قرب الأجل وقد دعـاه قبل ذلك كثيرًا. ولكنه لم يستجب مع أنه يعلم أنه حق ولكنه لا يريد أن يجلب المسبة لقومه على زعمه ولذا قال في شعره

ولقد علمت بأن دين محمد .... من خير أديـان البريـة دينًا

لولا الملامة وحذار مسبـــة .... لوجدتني منشرحًا بذاك بينًا

اترغب عن ملة عبد المطلب: من عبادة الأوثان والأصنام.

كلمة أحاج لك بها عند الله: أي أشهد لك بها وأحرص بها على نجاتك.

فكأن آخر مـا قال هو على ملة عبد المـطلب: لأنه قد سبقت له الشـقاوة ولم يرد الله له الهـداية لحكمة بالغـة فهـو مات على دين قـومه وهو الحق وجـاءت به الأحاديث الصحـيحة أنه رآه - أي النبي عليه الصلاة والسـلام في غمرات من النار فشفع فيه حتى صار في ضحضاح من النار يغلي منها دماغه. أما من قال أنه أسلم فلا أصل له. ففيه أن النبي لا يستطيع هداية أحد من الخلق.

(إنك لا تهدي من أحببت) فيه تسلية للنبى وتسلية لمن أسلم بعض قومه ولم يسلم بعضهم.

* * *

١٩- باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عز وجل: ﴿يَا أهلَ الكتَابِ لا تَغلُوا فِي دِينكُم﴾[النساء: ١٧١].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ ءَآلِهَتَكُم وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا، وَلا سُواعًا، وَلا يَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسراً﴾ [نوح: ٢٣] **قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمَّا هَلَكُوا أوحي الشيطانُ إلى قومهم أن أنصبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها انصابًا وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا ولم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبِدتْ».**

وقال ابنُ القيم ـ قال غير واحد من السلف لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

وعن عمر ـ أن رسول الله ﷺ قال ـ «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد ـ فقولوا عبد الله ورسوله» أخرجاه.

وقال ـ قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

ولمسلم عن مسعود ـ أن رسول ﷺ الله قال ـ «هلك المُتَنَطِّعُونَ» قالها ثلاثا.

بين المؤلف سبب كفرهم وأغلبه هو الغلو في الصالحين وهناك أسباب أخرى كالحسد والبغي والغالب أنهم أحبوا الأنبياء والصالحين حتى غلو فيهم وكفروا.

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾.

هذا نصارى وكذلك اليهود لكن النصارى أكثر غلوًا.

والمقصود من الباب التحذير من الغلو في حب الصالحين والأنبياء وحبهم دين حيث قال (في دينكم) والحب والبغض في الله من الدين كما قال عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه بما سواهما» لكن هذا الحب لا يكون بالغلو بل بأتباعهم وعدم عصيانهم وطاعتهم لا بعبادتهم من دون الله عز وجل وهكذا العلماء والصالحين يكون حبهم بالترضي عنهم والسير على منهجهم فيجب أن تكون محبة شرعية.

وفي الصحيح عن ابن عباس في قول الله تعالى ﴿ وقالوا لا تذرن ..﴾.

وهذا في قوم نوح وقد وسوس لهم الشيطان أن يصورها لتكون ذكرى لهم على العبادة فلما هلك أولئك أتى الشيطان من بعدهم وقال إن آباؤكم كانوا يعبدونها ويستغيثون بها فعبدوها.

فهذا سبب الغلو أضل الناس وأهلكهم في الدنيا والآخرة.

قوله (نسي العلم) أي ذهب وهي رواية، وفي رواية نسخ. فذهب العلم وجاء من لا يعلم فوقع في الشرك ففيه أهمية العلم ومحاربته للجهل فإذا ذهب وقع الناس في الباطل والجهل. ففيه فضيلة العلم الشرعي.

قال ابن القيم: ويحتمل كلامه إن الذين صوروها هم الذين عبدوها لما طال الأمر وتغيرت الأحوال ويحتمل أنهم بعد موتهم جاءت ذريتهم فعبدوها. فالبدع شرها عظيم على من فعلها وعلى من جاء بعده.

وعن عمر مرفوعًا (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم أنما أنا عبد..

يحذر النبي ﷺ من الإطراء وهو مجاوزة الحد في المدح.

والوصف بما لا ينبغي ولا يجوز ولا يحق له كأن يقال يعلم الغيب أو يتصرف في الكون.. بل يمدح بما ينبغي وبالحق كأن يقال خير الرسل وخير الخلق وخاتم النبيين مبلّغ الرسالة.. ومن الغلو ما قاله البوصيري في شعره: أنه يمدح بكل شيء لكن لا يقال ابن الله فقط، وهذا جهل وضلال. فلا يمدح بما يخص الله وحده لا هو عليه الصلاة والسلام ولا أحد من الخلق. وعندما ضاع عقد عائشة وجدوه تحت الجمل ولم يعلمه الرسول ﷺ ولا أحد من أصحابه فلا يعلم الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه.

وقال ﷺ : «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

قالها النبي ﷺ في حجة الوداع حين أمر ابن عباس بأن يأخذ سبع حصيات. والحديث رواه أحمد وبعض أهل السنن بإسناد جيد فهو حديث صحيح.

والغلو: الزيادة. يقال: غلى القدر. وهي الزيادة في الدين بما لم يأذن به الله

بل الواجب الوقوف على النص بدون زيادة ولا نقصان فإذا زادوا وقعوا في الشرك أو البدع.

ولمسلم عن ابن مسعود مرفوعًا «هلك المتنطعون».

والمتنطع: هو الغالي المتشدد المتكلف الذي يزيد في الأمور ولا يكتفي بالحد المحدود. وأصله في الكلام بأقصى حلقه والتكلف في الكلام وهكذا كل غال في أي شيء يقال له متنطع فيجب الاقتصاد في الكلام وفي كل شيء وليس لأحد أن يزيد في الدين أو ينقص لا ملك ولا رئيس ولا عالم ولا غيره.

* * *

٢٠- باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

في الصحيح عن عائشة «أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله» فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها قالت «لما نُزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خميصةً له على وجهه فإذا اغتَمَّ بها كشفَهَا فقال وهو كذلك: لَعنةُ الله علَى اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يُحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يُتخذ مسجداً». أخرجاه.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنتُ متخذاً من أمتي خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك).

فقد نهى عنه آخر حياته، ثم أنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد وهو معنى قوله «خشي أن يتخذ مسجداً» فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» ورواه أبو حاتم في صحيحه.

هذا باب عظيم كالذي قبله أي باب ما جاء من الأدلة في التغليظ فإن كانت الأدلة جاءت بإنكار عبادة الله عند قبور الصالحين فكيف إذا عبده واتخذه إلهًا من

دون الله فالتغليظ يكون أشد لأن الأول وسيلة والثاني شرك أكبر.

وفي الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور لرسول الله ﷺ فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح..».

رأت كنيسة: لما هاجروا إلى الحبشة رأوا كنيسة معظمة ولها شأن يقال لها مارية فيها صور وتحسينات.

أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح. هذا بيان حال النصارى وغلوهم في أمواتهم.

صوّروا فيه الصور: أي صور الرجل الصالح أو له ولاتباعه كما جرى لقوم نوح.

أولئك شرار الخلق: أي الذين فعلوا هذا الفعل لأنهم فعلوا أسباب الشرك والغالب أنهم يفعلون ذلك لأنهم يعتقدون الشرك. فتعظيمهم القبور والبناية عليها لتعبد ويستغاث بها فصاروا بهذا شرار الخلق.

فمن فعل هذا الفعل فقد تشبه بالنصارى وعمل عملهم ومن تشبه بقوم فهو منهم والمقصود من الكلام التحذير من فعلهم. وقد وقع في الأمة ذلك، وأعظم من فعله هم الرافضة الذين غلو في آل البيت وهم أول من بنى على القبور وبنى عليها المساجد وعبدوها من دون الله ثم قلدهم أناس من أهل السنة من كثير من بلاد المسلمين وقد وقع اتباعها للكفار حذو القذة بالقذة.

قوله فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فعظموا القبور، وصوروا الصور وكذا من شابههم من هذه الأمة شابهوا النصارى وشابهوا قوم نوح.

ولهما عنها قالت لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه..

طفق: جعل، خميصة : كساء.

وهذا من سكرات الموت لسيد الخلق ليرفع به الدرجات وليكون أسوة لأمته.

لعن الله اليهود والنصارى: قالها في مثل هذه الحالة العصيبة ليحذر أمته من فعل ذلك.

ولولا ذلك لأبرز قبره: أي في البقيع مع أصحابه.

غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً: لئلا يأتي أناس بعد الصحابة ويبنون عليها مسجداً أما الصحابة فلا يفعلونه. وهذا الآن يقع من بعض الجهلة الذين يزورون

المسجد يدعون النبي ﷺ لكن من وراء الجدار وهو شرك أكبر.

وهذا يدل على غيرة الصحابة وحرصهم على الأمة فلذلك نقلوا هذه الأحاديث للأمة.

ولمسلم عن جندب مرفوعًا: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً».

الخلة: أعلى من المحبة وفيه فضل الصديق رضي الله عنه وأنه أفضل الصحابة بالإجماع.

ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً: فلم يتخذه لئلا تزاحم محبته محبة الله عز وجل.

كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد: وفي مسلم (أنبيائهم وصالحيهم مساجد) وسقطت اللفظة لأنه نقلها من كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) وقد سقطت من هناك.

ومنع من هذا بثلاثة طرق:

١- ذم ما فعلوه.

٢- قوله: لا تتخذوا.

٣- قوله: فإني أنهاكم عن ذلك.

وهذا مبالغة منه في النهي عن ذلك. لأنه وسيلة إلى الشرك كما حصل الآن.

خشي أن يتخذ مسجدًا: لأن الصلاة عند القبور اتخاذ لها مساجد فكل موضع يصلى فيه فهو مسجد كما في الحديث (وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا) فإذا صلَّى عند القبر فقد اتخذ مسجدًا وإن لم يبنى فكيف إذا بنى وهذا من وسائل الشرك.

وقد ورد عن ابن مسعود مرفوعًا «أن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد».

لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق أما المؤمنون فتقبض أرواحهم قبل ذلك بالريح الطيبة.

والذين يتخذون القبور مساجد: أيضًا من شرار الناس لأنهم يتسببون في وقوع الناس في الشرك والبدع والباطل لأن الناس إذا رأوا هذا قالوا ما دام أنه قد بنى على هذا القبر فهذا القبر يدعى به ويستغاث به.

لا يضر قرب المسجد من المقبرة وإن فصل بينهم بطريق فهو أولى.

٢١- باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ) قال: كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره.

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السَّويق للحاج. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُجَ. رواه أهل السنن.

وهذا صحيح كما سبق فالغلو يجعل المغلو فيه معبودًا من دون الله ولهذا لما غلى أناس في بعض الصالحين جعلوها تعبد من دون الله كقبر الصالحين من الحسن والحسين وفاطمة وغير ذلك. وهكذا هذه الأمة غلو في الرسول فعبدوه واستغاثوا به ودعوه من دون الله. وفي سابق الزمان لما غلى قوم نوح في الصالحين أدى إلى عبادتهم، وتقدم ذلك.

* روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال « اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

روى مرسلاً عن عطاء بن يسار وزيد بن أسلم وروى متصلاً عن أبي سعيد الخدري عن النبي...

اشتد غضب الله...: لأنهم جعلوها أوثانًا تعبد من دون الله حيث بنوا عليها المساجد فعظموها فطافوا بها واستغاثوا بها ونذروا لها. فاللات لما غلى فيه أهل الطائف صار معبودًا من دون الله فهذه سنة الأولين والآخرين. فالبناء على القبور وتعظيمها يصيرها أوثانًا تعبد وإن لم يعبدوها الآن فالوسائل تجر إلى الغايات.

* حديث ابن عباس « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها السرج والمساجد».

فيه حرمة زيارة القبور على النساء على الصحيح للأدلة وكما في حديث حسان ابن ثابت وأبي هريرة بمعناه فزيارة القبور مختصة بالرجال.

المسألة الثانية: اتخاذ المساجد على القبور لما سبق من التشبه بأهل الكتاب، ولأنه وسيلة إلى الشرك.

مسألة: لا يجوز زيارة النساء حتى إلى قبر النبي ﷺ على الصحيح لأن الحديث عام.

وورد لفظ زوّارات لكن ورد أيضًا زائرات.

الحلف بالقرآن جائز لأنه كلام الله.

* * *

٢٢- باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جَنَابَ التوحيد وسَدِّه كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَد جَاءكُم رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّم﴾ الآية [التوبة: ٢٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيدا وصلوا عَلَيَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود باسناد حسن ورواته ثقات.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه (أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ؟ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه.

وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عَلَيَّ فإن تسليمكم يبلغني حيثُ كنتم» رواه في المختارة.

بين المؤلف بهذه الترجمة ما جاء به النبي ﷺ وحمايته التوحيد من الأقوال والأفعال الشركية.

وجناب الشئ: الجزء منه. وحمى التوحيد: زائد على الجانب فالثانية أبلغ من الأولى لأن الأولى في الجانب والثانية في الحمى. وهنا ذكر الوسائل الفعلية لحماية التوحيد من الشرك، وفي باب حماية التوحيد وسد طرق الشرك ـ وسيأتي ذكره ـ فيه الحماية القولية أي حمى التوحيد بالتحذير من الشرك وما يوصل إليه من أقوال وأفعال.

قوله ﴿ قد جاءكم رسول من أنفُسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ هذا وصف له والخطاب لقريش وللأمة كلها ولهم خاصة لأنهم يعرفونه ويعرفون نسبه وأنه منهم وفي قراءة شاذة (من أنفَسكم) من أشرفكم. عزيز عليه ما عنتم: أي شاق عليه الشيء الذي يضركم ويتعبكم لرحمته بكم وحبه لكم، وحريص على هدايتكم وتحذيركم من النار بأعماله وأقواله، وهو

رؤوف بالمؤمنين عطوف عليهم ولكنه شديد على أعداء الله لكفرهم وضلالهم فهذه أوصافه فإن كانت هذه حاله فالواجب اتباعه ومحبته، ولكن حصل العكس فعادوه حتى أرادوا قتله. ثم من كانت هذه صفاته فإنه لا يترك أمته بدون نصح لذلك أمر بالتوحيد وحث الناس على الاستقامة وحذر من الشرك وأسبابه بأقواله الكثيرة كحديث « لا تطروني كما أطرت النصارى.. أياكم والغلو.. هلك المتنطعون ».

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا..».

عيداً: بتكرار المجئ إليه والدعاء عنده أو الصلاة عنده أو الاستغاثة به ونحو ذلك، والعيد هو ما يتكرر ويعود كل مرة. ولا يدخل في هذا زيارته عليه الصلاة والسلام بدون شد الرحل وبدون غلو فيها وعبادة عندها.

لا تجعلوا بيوتكم قبوراً: أي مثل القبور لا يصلى فيها ولا يقرأ عندها بل صلوا فيها واقرءوا. وفي الحديث « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً» فدل على أن القبور لا يصلى فيها ولا يقرأ عندها. والذي يصلى في البيوت: النوافل.

صلوا عليَّ: حث على الصلاة عليه ﷺ.

* وعن على بن الحسين أنه رأي رجلاً يجئ إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها..

على بن الحسين: هو زين العابدين.

فيصلى على النبي ﷺ في كل مكان في البيت والسوق والطريق ولا يخصوا السلام والصلاة عليه عند القبر. ولهذا أنكر على بن الحسين على الرجل وبين له أن هذا ليس بمشروع وأنك تسلم عليه وتمضى لا تجلس عند القبر تدعو.

هذه سنة جاءت عن أهل البيت وكلهم بينوا أن اتخاذ القبر عيداً وسيلة إلى الشرك إذا عكفوا عليه عنده وصلوا عنده ودعوا عنده جرهم هذا إلى الشرك والغلو فحسم النبي المادة. ومن اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وتجصيصها وفرشها يؤدي إلى اعتقاد العامة أنها معظمة وأنها تنفع وكل هذا قد وقع مع أن النبي ﷺ قد حمي جناب التوحيد وحذر منه ـ الشرك ـ.

٢٣- باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سُنن من كان قبلكم، حذو القذَّة بالقذَّة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» أخرجاه.

ولمسلم عن ثوبان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإنّ ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضًا».

ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

أي باب ما جاء من أحاديث وآيات تدل على ذلك وأنها غير معصومة في

الوقوع في الشرك وكما دخل الناس في دين الله أفواجًا صاروا يخرجون منه، وقد وقع في عهد الصديق من الردة ما وقع.

وقول الله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت** ﴾.

أخبر الله أن أناسًا من أهل الكتاب يؤمنون بالجبت: وهو السحر، والطاغوت الشيطان ﴿ **ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** ﴾ وهذه قالة اليهود ككعب بن الأشرف وحيي بن أحطب قالوا: إن قريشًا أهدى من محمد وأصحابه وهم يعلمون أنه على الحق فقالوا عنادًا وحسدًا وبغضًا وخلافًا لما معهم. فهم أوتوا نصيبًا - أي حظًا - من الكتاب لكن لم يعملوا به بل خالفوه وآمنوا بالجبت والطاغوت وقالوا هؤلاء أهدى سبيلاً. فإن كان هذا قد وقع من اليهود فسيقع من هذه الأمة لحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم » فدل على أن هذا سيكون في أمة محمد ﷺ من يكفر ويقول إن الكفرة أهدى من اتباع النبي ﷺ وهو وقع قديمًا ويقع الآن ممن يفضلون اليهود والنصارى على هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت** ﴾.

فإذا كان من قبلنا عبد الطاغوت: وهو الشيطان، وكل ما يعبد من دون الله. فهكذا يوجد في هذه الأمة من يعبد الطاغوت والأوثان لحديث «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدًا**﴾.

فإذا كان في الأمم الماضية من اتخذوا المساجد على القبور وعظموها فكذلك في هذه الأمة، وقد وقع هذا في آخر القرن الأول من الرافضة الذين بنوا المساجد وعظموا القبور ثم تبعهم من يدعى الإسلام كما هو حال المسلمين كما في الحديث الآتي:

* عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم

حذو القذة بالقذة». .

والقذة: هي ريشة السهم وتكون متساوية حتى يستعين بها الرامي على أصابة الهدف فكما أن هذه تشبه هذه فكذلك من وقع من كفار هذه الأمة أشبه بمن قبلهم في الشرك بالله وعبادة الأوثان والأصنام. وكما أنه وقع في الأولين من سب أتباع الأنبياء فكذلك وقع في هذه الأمة من الرافضة والخوارج الذين سبوا الصحابة وهكذا كل معصية وكفر وقع في السابقين سيقع في هذه الأمة. ومن ذلك الحديث الذي رواه البخاري مرفوعًا: « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلطة » ودوس: قبيلة في الجنوب في بلاد غامد وزهران فقد وقع في عهد قريب قبل هذه الدولة من عبد هذا الصنم وطاف حوله وسيقع مرة أخرى. وقال عليه الصلاة والسلام: « لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان» وقد وقع. وعن عائشة مرفوعاً « لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى » وسيقع هذا كله.

مسألة: حديث «يئس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب» هذا يحتج به الجهال ولكن هل يئس معصوم؟ فهو ليس معصوم قد يئس من الشيء ويحصل فلما ظهر الدين يئس، ولكن الشرك وقع كما هو مشاهد وقد يرجو الشيء ولا يحصل. وقيل أنه يئس أن يعودوا كحالهم الأولى تمامًا لأنه سيبقى طائفة من الأمة على الحق. وقيل أن المراد: الصحابة لرواية (المصلين) وأل: للعهد، أى المصلين الصحابة لأن الله وفقهم ورزقهم العلم. وكل الإجابات الثلاثة صحيحة.

ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لى الأرض».

زوى: أي جمعها. فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زُوى لى منها، وهذا معلم من معالم النبوة فقد وصل ملك هذه الأمة إلى أقصى المشرق إلى الصين وإلى أقصى المغرب: المغرب وطنجة. وليس كذلك شمالاً وجنوباً.

(أني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض: هى كنوز كسرى وقيصروكانا أعظم دولتين. دولة النصارى والوثنيين، وهذا ما حصل لهذه الأمة. وقد أنفقت كنوزهما

في سبيل الله كما أخبر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام في عهد عمر وعثمان وهذا علم من أعلام النبوة.

وإني سألت ربي لأمتي ... يستبيح بيضتهم: البيضة: المجتمع والحوزة والخلاصة.

بسنة عامة: أي هلاكًا عامًا كما جرى لقوم نوح وصالح وغيرهم لأن هذه الأمة آخر الأمم ولما جعل الله في نبيها من الخير والبركة وستبقى هذه الأمة إلى قيام الساعة.

وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم: فاستجاب له لكن قال الله: «حتى يهلك بعضهم بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا» أي إذا تسلطوا فيما بينهم وتقاتلوا سلط عليهم أعداءهم وهذا ما حصل لما تفرقوا واختلفوا طمع فيهم أعداؤهم وأخذوا ما في أيديهم من أزمان طويلة.

قضيت قضاء لا يرد: أي أن الله إذا أمر بشيء وقضاه وقدره لا يرده أحد، وقد سبق في علم الله أن هذه الأمة سيقع فيها الخلاف والنزاع وأن دعوته ﷺ لهم في أنهم لا يتقاتلون ولا يتنازعون فيما بينهم لم تستجب بل منع هذه الدعوة. ولهذا وقع النزاع في العهد الأول وما بعده كما حصل من التتار ما حصل بعد ذلك من تسلط العدو عليهم بسبب عدم تمسكهم بالحق على الوجه الصحيح، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وبه يعلم أن الأمة لو اجتمعت على الحق واستقامت وتعاونت فإنها تغلب عدوها ويجمع الله لها الخير ومتى تفرقوا وتنازعوا طمع فيهم الأعداء وسهل عليهم أخذها والنيل منها.

وما رواه البرقاني وزاد «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين .».

البرقاني: بتثليث الباء وقال بعضهم وبدون ضم.

وهذا يفيد خطورة الأئمة المضلين وهم ولاة السوء فإنهم يُتَبعون ويتأثر بهم ويستعان بهم على الباطل فلذلك خاف على أمته منهم. وهذا يشمل الأمراء والقضاة الضالين.

« وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»: وهذا قد وقع، وهذا من علامات

النبوة فإن باب الفتنة فتح بقتل عمر ثم ازداد بقتل عثمان وزاد الشر.

«لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان»: يدل على أن الشرك سيقع في هذه الأمة وقد حصل، وهذه هي الوثنية حصلت في الجزيرة وغيرها.

«سيكون في أمتى كذابون ثلاثون..»: وهو من علامات النبوة وقد وقع كما تنبأ مسيلمة فقتله الصحابة، والأسود العنسى وقد قتل في حياة النبي ﷺ، وسجاح التميمية وتابت، وطليحة الأسدي وقد تاب، وغيرهم وآخرهم الدجال الذي يدعي النبوة ثم يدعي أنه رب العالمين قاتله الله. وهؤلاء المدعون هم الذين يكون لهم شوكة وصولة وشبهة وإلا فالمدعون كثير بعضهم يقولها بجنون وهذيان وغيره.

«ولا تزال طائفة من أمتى على الحق».. هذا من علامات النبوة أيضًا ومن البشرى وهذه الطائفة لا تزال إلى الآن.

حتى يأتي أمر الله: وهي الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين فتقوم الساعة على شرار الناس.

وقد جاء في روايات: أنها تكون بالشام. لكن إن صح هذا فالمراد أحيانًا وليس دائمًا ولكن غالبها روايات ضعيفة وليس لها مكان معين قد تجتمع وقد تفترق وليس في حديث صحيح ما يدل على أنها تكون في مكان معين.

* * *

٢٤- باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلَاقٍ﴾ وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[البقرة: ١٠٢] .

قال عمر: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان».

وقال جابر: «الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وعن جندب مرفوعاً: «حدُّ الساحر ضربه بالسيف» رواه الترمذي وقال الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر».

وصح عن حفصة رضي الله عنها «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فَقُتِلت» وكذلك صح عن جندب.

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

السحر: بكسر السين هو ما يتعاطاه السحرة من عُقَد وأدوية ونفث في العقد وغيرها وأشياء يتلقونها من الجن والشياطين. والسحر: هو ما يسحر الناس، وسمى سحراً لأنهم يتعاطونها بطرق خفية.

وهو منكر وشرك لأنه لا يتوصل له إلا بالشياطين والتقرب إليهم وعبادتهم من دون الله كما في الآية ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ فدل على أن تعلمه يوجب الكفر ثم قال تعالى :

﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾ .

اشتـراه: أي اعتاضه وفـعـا فما له عنـد الله من حظ ولا نصيب. وهذا يدل على تحريمه وإنكاره ثم قال ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خـير لو كانوا يعلمون ﴾ فدل على أنها ضد الإيمان والتقـوى ولهذا قال أهل العلم أن السحر من الكفر والضلال لأنه لا يتوصل إليه إلا بعبادة الجن والشياطين. وقيل يستفصل فما كان مما يتعلق بعبادة الجن والشياطين فهذا من الكفر بالله وشرك أكبر، وما كان من أدوية ليس فيها تعـلق بالشياطين وعبادة لهم فهو من المحـرمات والكبائر والمنكرات التي فيها ظلم العباد والتعدى عليهم لأنهم يفسدون بها العقول ويغيرونها به.

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾.

هذه نزلت في اليهود. أخبر الله أنهم يؤمنون بالجبت وهو السحر، والطاغوت وهو الشـيطان. وقال أهل اللغـة: الجبت هو الشيء الـذي لا خيـر فيه كـالسـحر والصنم وغيره، والطاغوت من الطغيـان وهو تجاوز الحد ويطلق على الشياطين من الجن والإنس طواغيت أي تجاوزوا الحد بكفرهم وضلالهم.

قال جابر: الطواغيت كهان كـان ينزل عليهم الشياطين في كل حي واحد. أي أن الكهان من الطواغيت، قـال ابن القيم: الطاغوت: ما تجاوز العـبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع. متبوع في الباطل ومطاع في غير الشرع ورؤسهم خمسة: إبليس، ومن دعا إلى عبادة نفسه كفرعون، ومن عبد وهو راض، ومن ادعى علم الغيب، ومن حكم بغـير ما أنزل الله متعـمدًا. والسحرة والكهـان طواغيت لأنهم خرجوا عن الطريق وآذوا الناس بما يتعاطونه.

وعن أبي هريرة قال قال: « رسول الله ﷺ اجتنبوا السبع الموبقات.. ».

سميت مـوبقات لأنها مهلكات وأعظـمها الشرك به ثم السحـر لأن الغالب أنه منه لأنه عبـادة للجن واستعـانة بهم وتقرب إليهم، وقـتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف يوم اجتـماع الصفين للقتال فيـخذل قومه ويتولى، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات:قذفهن بالفاحشة.

غافلات: لأنهن في الغـالب لا يشعرن بمن رماهن ويدخل فيـه قذف المحصنين

من الرجال وأنه من الكبائر ويستحق القاذف إقامة حد القذف ولكنه في النساء أغلب فمن قذفهن حدّ.

مسألة: لا يجوز الذهاب للسحرة للعلاج وهو الصحيح عند أهل العلم، ولو كان من باب التداوي، ولو لم يكن يرضى بذلك لأن الذهاب إليهم دعوة لهم إلى الشرك وأن يفعلوا ما حرم الله، بل يتعاطى الأدوية الشرعية.

وعن جندب مرفوعًا: «حد الساحر ضربه بالسيف» رواه الترمذي وقال الصحيح أنه موقوف والصواب ما قاله الترمذي من أنه موقوف.

وقال هذا حينما كان ساحر في مجلس الوليد بن يزيد الفاسق وكان هذا الساحر يقطع رأسه ويعيده بزعمه فأتاه الوليد من حيث لا يشعر وضربه بالسيف وقال إن كان صادقًا فليعد رأسه، فقال جندب ذلك فهو من كلامه، وقد استنبطه من الأدلة الشرعية.

ومراده: أن الساحر يقتل ولا يستتاب لأن توبته لا تمنع ضربه فربما يكذب ويظهر التوبة ويبقى ضرره على الناس فمتى ثبت سحره وجب قتله لئلا يضر الناس.

وفي صحيح البخاري عن بجالة قال كتب عمر إلى أمراء الأجناد في الشام (أن يقتلوا كل ساحر وساحرة).

لما سبق من ضررهم الذي لا يزال إلا بقتلهم ولربما يظهرون التوبة وهو كاذب كالمنافقين، والساحر يقتل كفراً ولا يستتاب على الصحيح.

وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت، لأنها علمت أنها تتعاطى السحر فقتلتها.

قال أحمد: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ أي صح قتل الساحر والثلاثة هم جندب وعمر وحفصة. وهذا هو الصواب.

فائدة: قال بعض أهل العلم ومنهم الشافعي: إن كان سحر الساحر بأشياء معروفة تؤذي ولا تغير العقول بل تؤذي وتمرض ولا يكون فيه ادعاء لعلم الغيب،

ولم يكن ممن يستخدم الشياطين ويستعين بهم، ولم يكن يتعاطى ما حرمه الله من الشرك وغيره فهذا لا يقتل لأن هذا ليس من السحر بل هو من الأذى والظلم فيضرب ويؤدب. لأن المراد من قتل السحرة عند الصحابة هم الذين يستخدمون الجن ويعبدونهم ويدعون الغيب وهذا هو الغالب في السحرة فهذا يقتل وهو الصواب.

فائدة: ثبت أن النبي ﷺ قد سُحر لكنه لم يؤثر عليه شيئًا في أمور الرسالة وإنما كان فيما يتعلق بينه وبين أهله كما هو في الصحيحين.

* * *

٢٥- باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العِيَافة وَالطَّرْق والطِّيرة مِنَ الجبت».

قال عوف: العيافة؛ زجرُ الطير، والطَّرق الخط يُخط بالأرض، والجبت قال الحسن: رنة الشيطان. إسناده جيد.

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

وللنسائي من حديث أبي هريرة «من عقد عُقدةً ثم نَفَثَ فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشركَ، ومن تعلق شيئا وكل إليه».

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أُنبِّئُكم ما العضة؟ هي النميمة القالة بين الناس» رواه مسلم.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً».

أراد المؤلف أن يبين شيئًا مما يسمى سحرًا ليتنبه المؤمن ويجتنبها ويبتعد عنها وقد تسمى سحرًا من جهة أنها تضر وتؤذي وإن لم تكن سحرًا من جهة المعنى والحقيقة الذي هو استخدام الشياطين وعبادتهم فهذا سحر محض أما الثانية فهو يعمل عمل السحر ويؤذي وإن لم يكن سحرًا في الحقيقة.

* قال أحمد حدثنا محمد بن جعفر. . . أنه سمع الرسول ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

الجبت: السحر كما قال عمر رضي الله عنه.

والمعنى أن هذه يطلق عليها أنها من السحر من جهة ما فيها من الشر والفساد

ومن جهة ما قد يدعيه أصحابها من علم الغيب.

والعيافة: زجر الطير كما قال عوف فيزجرون الطير ويزعمون أنها تدلهم على شيء فيتشاءمون بها تارة ويتيمنون بها تارة أخرى وهذا من عمل الجاهلية. والطيور ليس عندها خير ولا شر ولكن هذا من جهلهم وضلالهم كما يتشاءمون بالغراب والبومة أو حيوان سيء الخلقة، ويتيمنون بالحيوان الحسن الخلقة ويقولون هذا مخرج طيب والعكس كذلك.

والطرق: الخط يخط في الأرض، ويقولون هذا يدل على كذا وأنه يحصل كذا وهذا قد يكون من العبث أحيانًا وقد يكون تخييلاً وهو في الحقيقة خدمة للشياطين وأخذ بأقوالهم وطاعتهم ودعوىٰ علم الغيب وكله كذب وهى لا تفيد شيئًا.

والجبت: قال الحسن رنة الشيطان.

الطيرة: هي التشاؤم بالمرئى أو المسموع وهي محرمة ومن الشرك الأصغر وقد تكون أكبر إذا اعتقد بأن الطائر يتصرف في الكون أو يدبر شيئًا ولكن الغالب أنهم يتشاءمون بها فقط.

فكل هذا من عمل الجاهلية، ومن الجبت وهو السحر وقيل الصنم أو الشيء الذي لا خير فيه، والمقصود الزجر عنها والنهي لأن فيها تشبه بالجاهلية والجاهليين.

* قوله لأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه أي قوله (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت). أما ما بعده فهو عند أحمد فقط.

*حديث ابن عباس مرفوعًا «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» رواه أبو داود وإسناده صحيح.

يدل على أن تعلم أمر النجوم في التأثير في الكون هو من أقوال المنجمين والمشعوذين وهو باطل ومنه التعلق بالنجوم في موت أحداً وحياته أو زوال ملك فلان وغيره.

زاد ما زاد: أي كلما زاد اقتباسه من النجوم زاد اقتباسه من السحر والشر، والمراد: علم أن للنجوم تأثير فهذا هو المنكر وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على

الحوادث الأرضية، أما الاستفادة من النجوم وسيرها في معرفة القبلة والحر والبرد فلا بأس به لأنه من علم التسيير لا من علم التأثير وهو من نعمة الله. ومن التشاؤم بالزمان أن لا يذبح ولا يشترى ولا يعقد عقداً في صفر فهو عمل جاهلي.

وللنسائي من حديث أبي هريرة «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك»..

أراد المؤلف بيان ما تقدم من أنواع السحر وإن من هذه الأنواع العقد والنفث فالساحر يعقد عقداً ثم ينفث فيها بأنفسهم الخبيثة وأرواحهم مع تعاونهم مع الشياطين وخدمتهم له وبهذا يقع بعض ما أرادوا بإذن الله تعالى كما قال سبحانه ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ أي بإذنه الكوني وقد ذكر الله السحر في قوله ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ وهن السواحر.

والسحر قسمان:

١- قسم يكون بالعقد والنفث والأدوية الضارة وهذا موجود.

٢- وقسم يكون بالتخييل والتلبيس والتزوير كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ وقال ﴿ وجاءوا بسحر عظيم ﴾ فسماه عظيمًا لما فيه من التلبيس والتخييل على الناس.

ومن سحر فقد أشرك: من تعاطيه السحر لأنه يكون بعبادة الشياطين ودعائهم.. ولهذا قال الله ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ وقال ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ فدل على أن تعلمه يوجب الكفر.

وإسناد هذا الحديث فيه ضعف لأنه من رواية الحسن عن أبي هريرة. وقد ذكر جمع من العلماء أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة فيكون منقطعًا وهو من رواية عباد بن ميسرة وفيه ضعف لكن له شواهد من حيث المعنى.

من تعلق بشيء وكل إليه: فمن تعلق بالله وكل إلى الله، وكفاه الله ما أهمه ﴿أليس الله بكاف عبده ﴾ ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ومن تعلق بالسحر

والتمائم والشياطين وكله الله إليهم، ومن توكل على غير الله فقد خسر وهلك.

* مسلم: عن ابن مسعود مرفوعًا (ألا أنبئكم ما العضه) هي النميمة القالة بين الناس.

العضه: بفتح العين وتسكين الضاد قال في القاموس هى بمعنى السحر والكذب والنميمة وذكره هنا لأن السحر يحصل به بهتان وكذب وتلبيس وغش على الناس وخيانة.

النميمة والقالة بين الناس: سميت عضه لأنها تضر الناس ويترتب عليها من الكذب والفرية وشحذ القلوب والإفساد بين الناس.

ولهذا قال يحيى بن كثير كما روى عنه ابن عبد البر (قد يفسد النمام والكذاب في الساعة أكثر مما يفسده الساحر في السنة » فشرهم كبير ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام « لا يدخل الجنة نمام».

ولهما: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « إن من البيان لسحرًا ».

البيان: الفصاحة والبلاغة لأن صاحب البيان قد يسحر الناس بأسلوبه وفصاحته فربما لبس عليهم الأمر وربما خدعهم وخفيت عليهم الحقائق.

وأصل الحديث قال الجمهور: إن فيه مدح البيان إذا كان في الحق.

وقيل: أنه يراد به الذم حكاه ابن عبد البر عن جماعة من العلماء.

ولكن يقال: إن البيان إذا كان في الحق والدعوة إلى الكتاب والسنة فهذا ممدوح. أما إذا أريد به الخداع واللبس فهذا ذم وعيب والحديث يحتمل الاثنين.

والكتاب والسنة قد جاءت بأوضح البيان وأفصحه في بيان الحق ودعوة الناس.

وخطب رجل عند عمر بن عبد العزيز فأحسن فقال: هذا والله السحر الحلال.

٢٦- باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ قال «من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة: « من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا.

وعن عمران بن حصين مرفوعا « ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سَحَرَ أو سُحِرَ له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار باسناد جيد.

ورواه الطبراني في الأوساط باسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله «ومن أتى» إلى آخره.

قال البغوي: العرَّاف الذى يدَّعِي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يُخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس بن تيمية: العراف اسم الكاهن، والمنجم، والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

ونحوهم: من العرافين والرمالين والسحرة ومن يدعي علم الغيب.

والكاهن: هو الذي له راءي من الجن أي صاحب وحكمهم أنه يجب القضاء

عليهم وتعزيرهم وتكذيبهم وعدم سؤالهم.

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه قال «من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

بعض أزواجه: هي حفصة كما قاله المخرجون.

فصدقه: ليست هذه اللفظة في مسلم فلعل المؤلف وهم أو نقله من نسخة فيها هذه الكلمة في مجموعة التوحيد: فصدقه هي عند أحمد - فرواية مسلم تدل على أن السؤال المجرد لا يجوز لأن فيه رفعًا من شأنهم وسؤالهم وسيلة إلى تصديقهم وتعظيمًا لقدرهم ولما يقومون به من الشعوذة فينبغي تركهم وتناسيهم وعند مسلم عن معاوية بن الحكم قال (ليسوا بشيء، ولا تأتوهم) احتقارًا لهم وإعراضًا عنهم وإماتة لهم ولشأنهم.

وعن أبي هريرة مرفوعًا «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وللأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما عن أبي هريرة من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه.

يدل على أن إتيانهم لا يجوز وتصديقهم في ادعاء علم الغيب كفر لأن علم الغيب إلى الله وحده وهم ليس رسلاً وكذلك الكاهن كافر إذا ادعى علم الغيب ومن صدقه كفر لأنه لم يؤمن بقوله تعالى ﴿ **قل لا يعلم الغيب إلا الله** ﴾ فيجب الحذر منهم.

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود موقوفًا مثله.

وهذا له حكم الرفع لأنه لا يقوله من رأيه بل لا يكون إلا عن النبي ﷺ.

وعن عمران بن حصين مرفوعًا «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له..».

وهذا وعيد وترهيب لمن فعل هذه الأمور.

ليس منا: أي ليس من المتبعين لسنة رسول الله ﷺ.

أما التكفير فيؤخذ من أدلة أخرى فيها التفصيل وإن كان ظاهره التكفير.

فالتطير سواء لنفسه أو تطير له غيره برضاه أو تكهن بنفسه أو تكهن له غيره برضاه... أما التكفير ففيه تفصيل كما تقدم. وتصديقهم كفر أكبر. ومن ادعى علم الغيب يستتاب وإلا قتل وإذا لم يدعى علم الغيب فإنه يعزر حتى لايعود إليه.

قال البغوي: العراف الذي يعطى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

مقدمات: أي بأشياء ينظمها يستدل بها على مكان المسروق وقد يعرفها بالآثار كآثار الدابة ورعيها وهذه قد تقع لكن لا يكون من العرافين المذمومين إلا إذا ادعى علم الغيب أما الأمور الحسية فليست من هذا الباب.

عما في الضمير: فيقول أراد فلان كذا وقصد كذا بما يسأله صاحبه من الشياطين والجن.

فائدة: لا يجوز تعلم السحر أبدًا حتى إذا قصد به فك السحر لأنه لابد وأن يترتب عليه عبادة لغير الله أو فعل محرم أو ترك واجب.

قال أبو العباس: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذا العراف.

وهذه تدل كلها ـ أي النصوص والآثار ـ على أن هؤلاء الكهنة والسحرة والرمالين هم المذمومون وهم الذين يدعون علم الغيب.

قال ابن عباس في قدم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم.

أي حروف (أبجد) وهي حروف الهجاء. فيكتبون الحروف ويضمونها إلى بعض ويقولون: يقع كذا ويقع كذا.

ماله من خلاق: أي من حظ ونصيب لأن فيه ادعاء لعلم الغيب وهو كفر.

٢٧- باب ما جاء في النَّشْرَة

عن جابر (أن رسـول الله ﷺ سُئل عن النَّشرة؟ فـقال: هى من عمـل الشيطان). رواه أحمد بسند جيـد وأبو داود. وقال: سُئِلَ أحمد عنها؟ فقـال ابن مسعود ـ يكره هذا كله.

وفي البخـاري عن قتادة ـ قلت لابن المسيب رجل به طب أو يؤخـذ عن امرأته أيُحلُّ عنه أو يُنشـر؟ قال لا بأس به؟ إنما يريـدون به الإصلاح فـأما مـا ينفع فلم يُنه عنهُ، انتهى.

وروى عن الحسن أنه قال: لا يَحلُّ السِّحرَ إلا ساحر.

قال ابن القيم: النَّشرةُ حلُّ السِّحرَ عن المسحور، وهى نوعان:

خل بسـحـر مثلـه وهو الذي من عـمل الشيـطان. وعليـه يحمل قـول الحـسن فيتـقرب الناشر والمنتشرُ إلى الشيـطان بما يحب فيبطل عمله عن المسـحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوّذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز.

النشرة: حل السحر عن المسحور يقال نشر عنه إذا حل ما أصابه.

عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سـئل عن النشرة فقـال: «هى من عمل الشيطان».

يدل الحديث النهى عن الـنشرة المعروفـة في الجاهلية لأن أل للعـهد الذهني. وهى حل السحر على المسحور بسحر مثله.

من عمل الشيطان: لأن السـاحر يتقرب إلى الشياطين بما يحبـونه من عبادتهم والنذر لهم فيسعـفونهم بإعطائهم الإجابات عما يسألونه مما يخـفى عليهم من عمل الساحر، وما فعله في المسحور فهذا من عمل الشيطان.

سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

أي النشرة التي من عمل الشيطان والتي يتقرب فيها إلى الشياطين.

وفي البخاري عن قتادة قلت لابن المسيب رجل طب. . . لا بأس به.

وهذا الكلام محمول على الحل الذي لا بأس به وهو الحل بالرقية والمعوذات والأشياء المباحة لأن هذا من الإصلاح والإصلاح مأمور به والمنكر منهى عنه.

وروى عن الحسن قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

أي لا يحله بالطرق الشيطانية إلا السحرة. أما حله بالطرق الشرعية فهذا يحله أهل العلم والبصائر وأهل الخبرة والتجارب ومن القراءة أن يقرأ عليه الفاتحة ويكرر عليه وآية الكرسي أو كلاهما ويقرأ عليه آيات السحر في الأعراف وطه ويونس والكافرون والمعوذتين وينفث مع القراءة ويقرأ عليه وعلى زوجته وهذه رقية استعملها العلماء ونفع الله بها.

ومن ذلك ما ذكره بعض المتقدمين أنه تؤخذ ورقات من شجر السدر الأخضر فتدق ويجعل في ماء ثم يقرأ عليه هذه الآيات فيشرب المسحور منه أو المحبوس ثلاث مرات ما تيسر ثم يغتسل بالباقي فيزول عنه ما أصابه. فهذه نشرة شرعية ومن المباح الأدوية المجربة التي لا محظور فيها ولا تكون نجسة ولا استعانة فيها بالشياطين ولا فيها ما حرم الله وهذا الحق والصواب.

قال ابن القيم: النشرة نوعان. . . وتقدمت.

* * *

٢٨- باب ما جاء في التطير

وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّما طآئِرُهُم عند الله ولكنَّ أكثرهُمْ لا يعْلمُون﴾ [الاعراف: ١٣١].

وقوله ﴿قالُوا طَائِرُكُم مَّعكُمْ﴾ الآية [يس: ١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجاه.

زاد مسلم - (ولا نوء ولا غول).

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لا عدوى ولا طيرة ويُعجبُني الفأل. قالوا: وما الفألُ؟ قال: الكلمة الطيبة».

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: (ذُكرت الطِّيَرَةُ عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنُها الفأل ولا ترد مسلمًا فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

وله من حديث ابن مسعود مرفوعًا «الطيرة شِركٌ، الطيرة شِركٌ، ومَا منَّا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود والترمذي وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ولأحمد من حديث ابن عمر - «من رَدَّتهُ الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك».

وله من حديث الفضل بن العباس «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

ولم يسجل شرح هذا الباب.

٢٩- باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة «خَلَقَ الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ورجُومًا للشياطين وعلامات يُهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به» انتهى.

وكره قتادة تعلُّم منازل القمر، ولم يُرخِّص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما.

ورخَّص في تَعَلُّم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة لا يدخلون: الجنة مُدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر». رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

لما كان التنجيم شائعًا معمولاً به ذكره المؤلف.

التنجيم: مصدر نجم ينجم تنجيمًا أي حزر وحدس بما يعتقده في النجوم والتنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فينظرون في النجوم واجتماعها وافتراقها وطلوعها وغروبها وتقاربها وتباعدها ويستدلون بها على أنه يقع كذا وكذا، وهذا باطل من دعوى علم الغيب التى أبطلها الله بقوله **﴿قل لا يعلم الغيب إلا الله﴾**.

أما النظر في النجوم من باب التسيير لمعرفة منازل المقر لتحديد أوقات الصلاة والمطر فلا بأس به كما هو رأي أحمد وإسحاق بن راهويه.

* قال البخاري في صحيحه عن قتادة قال خلق الله هذه النجوم لثلاث.

قال تعالى **﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين ﴾**.

وقوله **﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾**.

قوله من تأول فيها غير ذلك أخطأ . . . : بأن زعم أنها تدل على كذا وكذا من علوم الغيب فقد أخطأ. وأضاع نصيبه أي من الآخرة. وتكلف ما لا يعلم.

قوله علامات يهتدى بها: هذا علم المنازل والتسيير.

وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص ابن عيينة فيه . .

وهذا قول مرجوح لهما ورخص فيه أحمد وإسحاق وهو الصواب.

* عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة لا يدخلون الجنة . .

(مدمن خمر) هذا من باب الوعيد لأنه من كبائر الذنوب وصاحبه تحت المشيئة إن لم يتب إذا لم يستحلها فإن استحلها كفر.

(قاطع الرحم) كذلك من الكبائر.

(مصدق بالسحر): أي إذا صدق أنه حق وأنه يغير الأشياء وأن صاحبه على حق وأنه مصيب أو أن صاحبه يعلم الغيب فهذا يكون كفرًا وصاحبه كافر.

أما إذا صدق بإنه موجود وأن له تأثير ولكن يعلم أنه حرام ومنكر فهذا لا حرج فيه لأن الله أخبر أنه موجود كما قال تعالى ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾.

* * *

٣٠- باب ما جاء في الإستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُم أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن ـ الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب) رواه مسلم.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا، وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

ولهما من حديث ابن عباس معناه وفيه ـ قال بعضهم:

(لقد مُطرنَا بنَوء كذا وكذا. فأنزل الله هذه الآية).

(فَلا أُقسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) إلى قَولِهِ: (تكذبون).

أي طلب السقيا وهو المطر. وقد شرع الله الاستسقاء به سبحانه. والاستسقاء: الضراعة إلى الله عند وجود الجدب. بدلاً مما عليه أهل الشرك من الطلب من النجوم والتعلق بها والاستغاثة بها وكانوا يستسقون بالنجوم وهى الأنواء وهي ثمان وعشرين نوءًا ينزلها الشمس والقمر في مدارها ينزلها القمر في الشهر والشمس في السنة وكان فى الجاهلية يتعلقون بها ويستغيثون بها وهذا من شركهم وضلالهم كما قال سبحانه ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ تكذبون إنزال الله للمطر واغاثته لكم وتسألون النجوم وتستغيثون بها فكذبهم لذلك لأن هذه النجوم لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئًا من الأمر.

فوجب على المؤمنين الأخـذ بما جاء عن النبي ﷺ والعمل به والحـذر مما عليه أهل الجاهلية ومن ذلك:

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونها . . أي لا يزال في الناس من يتعاطاها ويتأس بالكفرة. ومنها :

١- الفخـر بالأحساب فيـقول أنا ولد فلان ويتعظـم بذلك ويحتج على باطله ويفتخـر بها على الناس، والأحساب هـو ما يكون للآباء من مآثر وشجـاعة وجود وكرم وهو من سنة الجاهلية لأن رفعة الإنسان بعمله أما عمل غيره فليس له.

٢- الطعن في الأنســاب: بأن ينتقص الناس فـيقول فـلان نجار وفـلان حداد وفيه كذا وكذا على سبيل التنقص والعيب لا على سبيل الخبر فلا بأس فيه.

٣- الاستسقاء بالنجوم: فيقول سقينا بنوء كذا وكذا ويسألونها مباشرة.

٤- النياحة: إذا مـات الميت صاحوا ومزقوا ثيـابهم ونتفوا شعـورهم ويحثون التراب عليهم وهو موجود عند بعض المسلمين فيجب الحذر منها ومحاربتها.

وفي الحديث «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية» وقال «أنا برئ من الصالقة والحالقة والشاقة» الصالقة التي ترفع صوتها عند المصيبة.

قـوله والنائحة إذا لـم تتب. . . سربال من قطـران ودرع جرب: الغـالب في النائحة أن تكون في النساء ولذلك عبر بالأنثى وقد يفعله الرجال. وهو محرم على الرجال والنسـاء. وذكر القطران لأنه أشد في الاشتعـال والأذى وكذلك الدرع من الجرب مؤذي. وهذا بيان لسوء عاقبتها ومنقلبها إلا إذا تابت.

مسألة: لا بأس أن لا يتزوج الإنســان من أناس ليسوا ذوى حـسب وإن كانت المرأة ذات دين خوفًا من أذى قـومه ومضـايقتـهم له وهذه عادات ولا بأس فيـها. بشرط أن لا يكون تركه لهم لتنقصهم واحتقارهم عنده.

فائدة: بعض القرى يذبـحون الذبائح في رؤوس الجبـال لينزل المطر وهذا من الشـرك الأكبر لأنه مـن الذبح للجن والأحجـار والأصنام وقد ينزل المطر فـيكون ابتلاء لهم.

ولهما عن: زيد بن خالد قال صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية.

أثر سماء: أي أثر مطر، سمى سماء لأنه ينزل من جهة العلو.

فلما انصرف عن صلاته أقبل على الناس بوجهه: من عادته ﷺ أنه إذا سلم استغفر ثلاثًا وقال اللهم أنت السلام... ثم يعطي الناس وجهه ويذكر بقية الأذكار.

الله ورسوله أعلم: هذا من أدب الصحابة رضي الله عنهم وبعد موته ﷺ يقال الله أعلم لأن الوحي انقطع فلا يعلم ما بعده كما في الحوض إلا ما يعرضه الله عليه كالصلاة عليه.

قوله فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب: لأنه علم أن الله منزل الأمطار وهذا المطر من رحمة الله وفضله.

أما من قال مطرنا بنوء كذا: لأنه من أنواع الكفر، ولا يقول صدق نوء كذا أو سقينا بنوء كذا، بل يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته.

مطرنا بنوء كذا: أن قصد به أنه هو الذي خلق المطر وهو المتصرف في الكون فهذا كفر أكبر وأن قصد أنه سبب لهذا المطر فهذا نوع من أنواع الكفر ولكنه كفر أصغر لأنه ليس هو المتسبب بل كله من الله تعالى، والنجم ظرف من الظروف تقع فيه الحوادث كما تقع في الأيام والليالي. أما إذا قال مطرنا في الصيف أو نحوه فلا بأس لأنه أخبار عن الوقت. فالواجب الحذر من أخلاق الجاهلية والاعتراف بنعمة الله سبحانه أ.هـ.

* * *

٣١- باب قوله تعالى

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ من دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾[البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُمْ - إلى قوله - أحب إِلَيْكُم مِّن الله وَرَسُولِه﴾ [التوبة: ٢٤].

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) أخرجاه؟

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ:(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهُما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعُودَ في الكفر بْعدَ إذ أنقذه الله منه كما يكرهُ أن يُقذف في النار).

وفي رواية « لا يجدُ أحدٌ حلاوة الإيمان حتَّى» إلى آخره.

وعن ابن عباس قال « من أحبَّ في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك وقد صارت عامَّة مؤاخاة الناسِ عَلى أمر الدنيا، وذلك لا يُجدي على أهله شيئا» رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس في قوله (وتقطعَت بِهم الأسبَابُ) قال: المودة.

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾.

هذا الباب في إثبات محبة الله وأنها من أهم العبادات وأفضل القربات وأساس الدين لأن حبه يقتضي الإخلاص له والامتثال لأمره، وترك نهيه والانقياد له والآية تبين أن من الناس من يتخذ أنداداً من الجن والأنس والأحجار يحبونهم كحب الله محبة عبادة فصار حبهم لهذه الأنداد كحبهم لله أو كحب المؤمنين لله وهؤلاء ضلوا فأحبوا مع الله ونذروا وخضعوا ودعوا لمن أحبوهم. ومحبة غير الله يجب أن تكون تابعة لمحبة الله كمحبة الرسل نحبهم لأنهم رسل الله فلا نحبهم محبة عبادة وكذلك المؤمنين نحبهم لأنهم أطاعوا الله فنواليهم، أما محبة الذل

والعبادة فهذه لله وحده لا يشاركه فيها أحد والمشركون يصرفون هذه المحبة للأنداد وبعضهم يجرأ على الحلف بالله كاذبًا ولا يجرأ على الحلف بالأنداد والشيوخ كاذبًا ويقول هذه الأنداد أشد وأسرع انتقامًا من الله.

والذين آمنوا أشد حبًا لله: من محبة هؤلاء المشركين لأندادهم لأنهم أخلصوا العبادة لله وعرفوا حقه تعالى.

ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا: أي لو رأوا ذلك واستحضروه لأحبوا الله أكثر وعظموه وأخلصوا له ولكن جهلهم وقلة بصيرتهم أوقعهم في الشرك.

إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب: أي إذا رأى المعبودون من أولياء الله والرسل تبرأوا من عبادتهم ويقولون ﴿**تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون**﴾ أما المحبة الطبيعية كمحبة الطعام والنساء والأولاد فهذه لا تقدح في محبة الله إذا لم تؤثر على محبة الله، فإن زادت حتى صارت قادحة في محبة الله - كأن يطيع زوجته في معصية الله - فإن هذه المحبة تكون منقصة للإيمان بقدر ما تؤثر على محبة الله فلابد أن تكون مقيدة بشرع الله.

* وعن أنس مرفوعًا « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس.. ».

وهذا يدل على وجوب محبة رسول الله ﷺ محبة تليق به وتقتضي اتباعه وامتثال أمره وترك نواهيه ولا تكون محبة عبادة بل تابعة لمحبة الله.

* وعنه مرفوعًا « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان .. ».

تدل على وجوب محبة الله ورسوله على غيرهما من الآباء والأبناء والأموال فيطيع الله ويعمل بأمره ولو خالف هوى ولده أو زوجه أو غيرهما وهكذا الآية ﴿**قل إن كان آباءكم ..**﴾ تدل على وجوب تقديم الجهاد في سبيله إذا وجب النفير على هوى النفس والأقارب وإلا كان متوعدًا كما قال (فتربصوا) وهذا من أسباب كمال الإيمان ويجب عليه أن يبغض الكفر وأهله ويعتقد بطلانه.

وفي الحديث (سبعة يظلهم الله ... وذكر وشابان تحابًا في الله اجتمعا عليه..).

* وقال ابن عباس من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله ... طعم الإيمان ـ أي حلاوته.

فإنما تنال ولاية الله بذلك: أي تنال ولاية الله بالمولاة والمعاداة في الله.

حتى يكون كذلك: أي يوالي ويعادي.

وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا: هذا في زمانه رضي الله عنهما أي غلب على الناس الحب والبغض في الدنيا وهذا أمر خطير.

وذلك لا يجدي على أهله شيئًا: بل قـد يضرهم إذا صدهم عن الحق وخالف شرع الله أما إذا اشتغلوا بالدنيا في البيع والشراء وطلب الرزق وكان لا يضر إيمانهم ولا يوقعهم في المعاصي ويستعينون بذلك على طاعة الله فهذا لا حرج فيه.

* وقوله (وتقطعت بهم الأسباب) قال ابن عباس: المودة.

أي التي كانت بينهم على غير دين الله. انقطعت يوم القيامة وخانتهم وصارت عداوة.

* * *

٣٢- باب قوله تعالى

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠] .

وعن أبي سعيد رضى الله عنه مرفوعًا «إن من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمَّهُم عَلَى مَا لَم يُؤتِكَ الله، إن رزق الله لا يجرُّه حرص حَريص، ولا يَرُدُّه كراهية كَارِه».

وعن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضي الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سَخِطَ الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه.

﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ .

أراد المؤلف أن يبين وجوب خوف الله تعالى خوفًا يحمله على الإخلاص له وأداء ما فرض عليه والوقوف عند حدوده، والخوف ثلاثة أقسام :

١- الخوف من الله وهو أعظمها وأوجبها ويجب فيه الإخلاص وصرفه لغيره شرك، شرك أن خاف منها أن تصيبه بمكروه.

٢- خوف يحمل على فعل معصية الله وترك الواجب وهو الخوف من المخلوق وهو معصية وفيه نزل قوله تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون ﴾ ويحمله على ترك الجهاد، والواجب أن لا يخاف الإنسان من المخلوق إلا خوفًا يحمله على ما شرعه الله وأباحه ولا يحمله على المعاصي فالخوف من المخلوق في الأشياء الحسية والطبيعة جائز لا بأس به فهو فطري ويشرع الحذر من مقتضاه كالخوف من

اللص فيغلق بابه أو يخاف من سبع فيحمل السلاح أو المرض ونحوها، والترجمة في النوع الثاني وهو الذي حدث في أحد من بث الشيطان الخوف في قلوب المؤمنين من الكافرين والتثبيط عن الجهاد فنهاهم الله وأمرهم بالثبات فنفر إليهم النبي بعد أحد ولم يحصل قتال لأنهم فروا.

٣- الخوف الطبيعي من اللص والسبع والمرض ونحوه.

وقوله ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر.. ولم يخش إلا الله** ﴾ هذا الخوف الذي أوجبه الله ويستثنى منه الخوف الطبيعي العادي.

قوله ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾.

. هذا ذم لهم وهو أن بعض الناس إذا أوذى لم يصبر بل يحمله الخوف على فعل ما حرم الله وترك طاعة الله وما أمر به وهذا مذموم لأن الواجب أن يتقي الله وإذا أوذي في الله أخذ بالأسباب الشرعية من طلب المحاكمة والشكوى إلى ولاة الأمور وغير ذلك.

*وعن أبي سعيد مرفوعًا «إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله».

أي من ضعف الإيمان أن تسخط الله لترضِي الناس وأن تشكر الناس على النعمة التي ساقها الله إليك بواسطتهم والواجب أن تشكر الله وإذا فعلوا معروفًا لك فإنهم يشكرون ويجازون لكن الحمد كله لله وحده هو الذي هداهم وجعلهم يحسنون إليك، فيجب حمد الله أولاً وتخصيصه بذلك وتشكر المخلوقين على قدر إحسانهم ومعروفهم (ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله) ولكن يكون حمد الله أعظم لأنه هو المتسبب في ذلك فحرك قلوبهم إلى الإحسان إليك.

وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله: أي تذم لأنهم لم يصنعوا لك الخير الذي لم يكتبه الله لك والواجب أن تسأل الله من فضله وإذا كان حقك عندهم فإن الله لا يضيعه وسوف تأخذه يوم القيامة. وهذا لا يمنع أن يطالب الإنسان بحقه كحقه في الزكاة إن كان من أهلها ولكن لا يذمهم من أجل عدم إعطائهم بل يذم من ذمه

الله ويحمد من حـمده الله فذمهم لأنهم منعوا حق الله وفـعلوا ما لا ينبغي لا من أجل أنهم لم يعطوك فلا تنتقم لنفسك.

قوله: إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره: أي الذي لم يقـدر لك لا يأتي بالحرص علـيه بل عليك بأخـذ الأسـباب ولكن إذا لم يحـصل المطلوب فإنه لا يعجز وما قدره الله من الرزق لا يرده أحد ولو كره الناس.

* حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال « من التمس رضى الله بسخط. . ».

هذا يدل على أنه يجب على المسلم أن يلتمس رضي الله ويأخذ بالأسباب لأنه إذا رضى الله حصل له كل خير وإذا سخط حصل له كل شر.

ولكن إرضاء الله لا يمنع من الأخذ بالأسباب التي تدفع سخط الناس وإيذاءهم ولكن بدون سخط الله أمـا إذا كان يسخط الله فـإنه لا يفعله ولا يخافـهم ويتوكل على الله.

وفي رواية عن عائشة (من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله ومن التمس رضا الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا وعاد حامده له ذامًا).

* * *

٣٣- باب قوله تعالى

﴿ وَعَلَى الله فَتَوكَّلُوا إن كُنتُم مُّؤمنِينَ ﴾ الآية [المائدة: ٢٣].

وقوله: ﴿إنَّمَا المُؤمنُونَ الَّذينَ إذَا ذُكرَ الله وَجلتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

وقوله: (وَمَن يَتَوكَّلْ عَلَى الله فَهُو حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣].

وعن ابن عباس قال: (حَسبُنَا الله وَنعمَ الوَكيلُ) قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوهُمْ فَزَادَهُم إيمَانًا﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣] رواه البخاري والنسائي.

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾.

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه في جميع أمور الدين والدنيا والتوكل هو التفويض إلى الله والثقة به والإيمان بأنه مسبب الأسباب وكل شيء بيده وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن ويعلم أن القدر قد سبقه بكل شيء وليس للعبد قدرة على أي شيء لم يشأه سبحانه وتعالى مع الأخذ بالأسباب.

وقوله ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله .. ﴾ وقوله ﴿ يا أيها النبي حسبك الله .. ﴾ وقوله ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾.

أي كافيك الله وكافي أتباعك عن كل أحد ومن كفاه الله ما أهمه لم يحتج إلى أحد فالواجب على المؤمن أن يتوكل على الله مع أخذه بالأسباب التى تنفعه في دينه ودنياه وترك الأسباب التي تضره في دينه ودنياه. فيعمل الطاعات ويترك المعاصي لينال الجنة ويأكل ويشرب ويتجنب ما يضره لأن هذا سبب حياته فهذا لا ينافي التوكل بل التوكل مجموع الأمرين :

١- الثقة بالله وأنه مسبب الأسباب ومصرف الأمور وكل شيء بيده.

٢- الأخذ بالأسباب.

وليس التوكل ترك الأسباب كما تقول الصوفية بل لابد من الأمرين ويستعين بالله في ذلك.

حديث ابن عباس قال ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ قالها إبراهيم حين..

قالها إبراهيم فأنجاه الله من النار حين ألقاه النمرود وقال ﴿ **يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ فكفاه شرها وشرهم ونجاه منهم وصارت آية معجزة تدل على صدق رسالته وقال محمد ﷺ بعد أحد حين قالوا له أن المشركين قد جمعوا لكم ليكروا عليكم ثانية فقال ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ فكفاه الله.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يقولها عند الشدائد لكن هذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب لأن النبي قالها وقد لبس الدرع ومحل السلاح ووضع الخوذة على رأسه وكذلك فعل أصحابه. ويوم الأحزاب حفر الخندق. قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم** ﴾.

* * *

٣٤- باب قول الله تعالى

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ؟ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الخَاسِرونَ﴾[الأعراف: ٩٩].

وقولهَ: ﴿وَمَن يَقنَطُ مِن رَّحمَةِ ربِّه إلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، واليأسُ من روح الله، والأمن من مكر الله».

وعن ابن مسعود قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبد الرزاق.

﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾.

﴿ ومن يقنط من رحمة الله إلا الضالون ﴾.

هذا الباب لبيان تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله وبيان بعض هذه الكبائر.

فالأمن من مكر الله من الكبائر وهو يفضي إلى التساهل في محارم الله لأن من أمن من مكر الله ساءت أعماله وأخلاقه وتصرفاته ولم يخف الله، والقنوت هو اليأس من رحمة الله، كذلك فإنه يسوء ظنه بالله وتنكسر نفسه وتحترق. والواجب أن يكون المسلم بين الأمرين فيرجو الله ويخاف ذنوبه ومعاصيه فلا يغرق في المعاصي ويأمن مكر الله، وكذلك لا ييأس من رحمة الله بل يكون كالطير بين الجناحين، وفضل بعض العلماء جانب الخوف في حال الصحة لأنه أقدر على المعاصي وجانب الرجاء في حال المرض لأنه يضعف من الأعمال والطاعات والأصل أن يكون بينهما.

* حديث ابن عباس مرفوعًا سئل الرسول عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

هذا يروى مرفوعًا وموقوفًا والموقوف له حكم الرفع لأنه لا يقال بالاجتهاد وربما قالها ابن عباس عن نفسه اجتهاداً واستدلالاً بالنصوص. والكلام صحيح على كل حال.

* قال ابن مسعود أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله..

والشرك أعظم الذنوب وبه تحـبط جميع الأعمال. وكـذلك القنوط وهو شدة اليأس وهو من الكبائر لقوله تعالى ﴿ **ومن يقنط من رحمة الله إلا الضالون** ﴾.

هذا استـفهام بمعنى النفي أي أن هذا من صفـاتهم فقط والكبائر الأخـرى غير الشرك لا تحبط به الأعمال.

* * *

٣٥- باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يُؤمن بالله يَهد قَلبَهُ﴾[التغابن: ١١].

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبةَ فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

وفي صحيح مسلم. عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هُما بهم كُفر: الطعنُ في النَّسب والنّياحة على الميت».

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «ليس منَّا من ضَرَبَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ، ودَعَا بدَعوَى الجَاهليَّة».

وعن أنس أنَ رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بِعَبدِه الخَيرَ عَجَّلَ لَهُ بالعُقُوبَة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافيَ به يوم القيامة»

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» حسنه الترمذي.

أراد المؤلف أن يبين أن الصبر على ما يقدره الله من الإيمان، وإن المؤمن لا ينبغي له أن يجزع عند المصيبة في نفسه أو ولده أو ماله أو أهله بل يتحمل قال تعالى ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ هذا بعد قوله ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف . . . ﴾ وقال ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وفي الحديث (ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر).

وقوله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة. . أي يؤمن بأن الله قضى وقدر المصيبة فيحتسب ولا يجزع وبهذا يهدي الله قلبه للخير ويطمئنه ويسدده بسبب عمله الطيب. قال علقمة هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقبلها ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ﴾.

*وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « اثنتان في الناس هما بهم كفر. . »

الطعن في الأنساب: أي التنقص في الأنساب تكبراً وتعاظمًا على الناس

واحتقاراً لهم فهذا من الكفر المنكر أي شعبة من شعب الكفر وهو كفر دون كفر وهو من الكفر الأصغر لا الأكبر. وهو من خصال الجاهلية وفي الحديث السابق «أربعة في أمتي من أمر الجاهلية.». أما إذا قصد بالنسب التعريف بالناس فلا بأس ولا يدخل في الحديث.

النياحة على الميت: هذا يدل على الجزع وهو رفع الصوت بالصياح والنياحة فلا يجوز، أما دمع العين وهو البكاء فلا بأس كما في الحديث (والعين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى الله وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون).

*حديث ابن مسعود مرفوعًا « ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا..».

وهذا يدل على الجزع أيضًا وهو من عمل الجاهلية ويجب الصبر والثبات والعلم بأن الله قدر هذه الأقدار وقسمها ولابد من الموت ومع هذا يتعاطى الأسباب الشرعية.

وفي الحديث « أنا برئ من الصالقة والحالقة والشاقة».

*عن أنس مرفوعًا « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد..».

إذا أراد بعبده تكفير السيئات عجل له العقوبة إما بالفقر وإما بالمرض أو تلف ماله... فيكفر الله بها خطاياه وسيئاته وإذا أراد الشر أمسك عنه بذنبه فيكون معافى في كل شيء حتى يوافي ذنوبه كلها في الآخرة فيكون أشد من الدنيا.

فكثرة المصائب قد يمحى بها جميع المعاصي والسيئات فعليه بالصبر.

وقال النبي ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء..».

أي كلما عظم البلاء عظم الجزاء فإذا اشتد المرض وكثر فيكون التكفير أكثر وإذا اشتدت المصيبة في المال وغيره صار الجزاء أعظم والثواب أكثر.

قوله ﴿ وإذا أحب الله قومًا ابتلاهم ﴾ أي ابتلاهم ليمحص ذنوبهم ويزيل خطاياهم حتى يلقوه سالمون من الذنوب فيدخلون الجنة من أول وهلة ومثل هذا حديث «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه» وفي رواية «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه » فإذا كان دينه قويًا شدد عليه البلاء.

٣٦- باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

وعن أبي هريرة مرفوعًا: قال الله تعالى: أَنَا أغنَى الشُّركَاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه. رواه مسلم.

وعن أبي سعيد مرفوعا: (ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفيُّ يقوم الرجلُ فيصلِّي فيزينُ صلاتهُ، لما يرى من نظر رَجُلٍ). رواه أحمد.

هذا الباب عقده المؤلف للتحذير من الرياء، والرياء مصدر راءى يرائي: أي أظهر عمله ليراه الناس ويثنوا عليه أو ليحصل به غرضًا دنيويًا، أو يسمع بقراءته وتسبيحه أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ولهذا جاء في الحديث (من يرائي يرائي الله به ومن يسمّع يسمّع الله به » وفي رواية « من رآءىٰ رآءىٰ الله به، ومن سمع . . » أي يفضحه والجزاء من جنس العمل والواجب على المسلم أن يخلص العمل ويرجو الثواب من الله.

* قوله **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا ﴾**.

العمل الصالح لابد فيه من أمرين:

١- الإخلاص لله وحده في جميع أنواع العبادات.

٢- أن يكون موافقًا للشريعة وليس بدعة.

فمن كان يرجو لقاء الله صادقًا في رجائه فليعمل عملاً صالحًا موافقًا للشريعة ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

* وعن أبي هريرة مرفوعًا قال الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل. . ».

هذا بيان براءة الله من الأعمال التي فيها شرك وأن الله لا يقبل عملاً فيه شرك لغيره، وفي لفظ « أنا بريئ منها بل هي لمن أشركه » فهذا يدل على وجوب الإخلاص.

* وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد مرفوعًا « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من الدجال.. ».

ويقول الله يوم القيامة للمرائين « اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » وهذا يدل على خطورة الرياء خاصة على العباد. فخاف على الصحابة وهم أفضل الناس، لأن الرياء يقع في الصالحين ويبتلون به كغيرهم ويتساهلون به.

والدجال ممكن أن يعرف بعلامات لكن الشرك الخفي أشد منه لأنه يكون في القلوب، ولا يطلع عليه الناس لكن قد يعرف بعلامات تظهر على صاحبه ويقول النبي فيما صح عنه « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه قال الرياء يقول الله يوم القيامة للمرائين.. ».

* * *

٣٧- باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ الآيتين [هود: ١٥، ١٦].

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله ﷺ: تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة إن أُعطى رضى وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طُوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه إن كان في الحراسة، كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يُؤذن له. وإن شَفَع لم يُشَفَّعْ).

الشرك نوعان أكبر وأصغر، وهذا قد يكون من الأكبر وتارة يكون من الأصغر. فإذا أراد بإسلامه ودخوله الدين الدنيا فهذا شرك أكبر كالمنافقين فهم في الدرك الأسفل من النار. وتارة يكون أصغر كمن يرائي بقراءته وأمره ونهيه أو يجاهد لأجل الغنيمة ليس لله وهو مؤمن مسلم لكن تعرض له هذه الأمور.

قال تعالى **﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون ﴾** أي لا ينقصون. **﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾** وهذا وعيد. والآية في الكفار الذين عبدوا الله لأجل الدنيا كالمنافقين، وعمومه يوجب الحذر من إرادة الإنسان بعمله الدنيا ولو كان ذلك في بعض الأمور.

وهكذا قوله تعالى **﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾** وكذلك قوله **﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم.. ﴾** وفي الآية قيد إطلقته الآية السابقة وهو أن ليس كل من أراد الدنيا تحصل له فقد يحصل له بعض ما أراد.

وقوله **﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾** فالإرادة لا تكفي وحدها بدون السعي والإيمان فلابد من عمل وإيمان بالله وتوحيد له وإخلاص فهذا

هو الذي يكون سعيه مشكوراً من الله ومن المؤمنين.

فيدل على وجوب الإخلاص وأن العمل يبطل مع الشرك بالله.

* وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار».

في الصحيح: صحيح البخاري.

الخميلة: كساء سادة ليس فيه نقوش.

الدينار: من الذهب.

الدرهم: من الفضة.

الخميصة: كساء له أعلام منقش.

أي تعس من هذا قصده بعمله ودخوله في الإسلام أو عمل ما أظهر من أعمال الإسلام فتعس من كان عمله لأجل النقود وهذا المتاع كالمنافقين وغيرهم لأنه يذهب ثوابه ويحصل له الإثم والوزر، فدعى عليه بالتعاسة والانتكاسة.

إذا شيك فلا انتقش: أي فلا يوجد من يخرجها وهذا دعاء عليه بتعسير الأمور وسوء العاقبة.

طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أي من شدة عنايته وانشغاله بالجهاد غير متفرغ للعناية بترجيل شعره ودهنه ونحوه وغير متفرغ لتنظيف بدنه.

إذا كان في الحراسة كان في الحراسة.. أي مغمور في الناس غير معروف وهذا من كمال إخلاصه وصدقه فلا يتحرى مناصب الأمور ومعاليها ولا التقدم عند الملوك والأمراء والوجهاء فلهذا لا يعرفونه. فهذا له الجنة والكرامة بخلاف المنافق ومن كان عمله للدنيا في أمره ونهيه وجهاده أو غير هذا من شئون الدين فقد حبط عمله.

* * *

٣٨- باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله

وقال ابن عباس: يُوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟

وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أتدري ما الفتنة، الفتنة الشرك، لعلَّه إذا رَدَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

وعن عدى بن حاتم: «أنه سمع النَّبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ﴾ الآيـة [التوبة: ٣١]. **فقلت له: إنَّا لسنَا نعبُدُهُمْ. قال: أليس يُحرِّمُونَ ما أحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونهُ، ويُحلُّونَ ما حَرَّمَ الله فتُحلُّونه؟ فقلت: بلى، قال: فَتِلكَ عِبَادَتُهم». رواه أحمد والترمذي وحسنه.**

أراد المؤلف بهذه الترجمة تحقيق التوحيد واتباع الشريعة وتعظيم أمر الله ونهيه والحذر من تقليد الشيوخ والأمراء فيما يخالف شرع الله وهو التقليد الأعمى. فالواجب على أهله العلم والإيمان أن يعظموا أمر الله ونهيه وأن يحلوا ما أحل الله وأن يحرموا ما حرم الله ورسوله وأن لا يطيعوا أحدًا في خلاف ذلك فالطاعة إنما تكون في المعروف فطاعتهم في خلاف شرع الله حرام، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلا يطيع والده أو ولده أو زوجه في خلاف الشرع من الحل والحرمة.

وطاعتهم فيما يخالف الشرع هو اتخاذهم آلهة من دون الله كما سيأتي إن شاء الله.

* قال ابن عباس يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم قال رسول الله ﷺ وتقولون..

يوشك: يقرب.

حجارة من السماء: وعيد لهم بالعقوبة.

المعنى: أحتج عليكم في المسألة بأمر الله ورسوله فتخالفون وتردون على بخلاف أمر الله ورسوله بقول أبي بكر وعمر. فهذا يدل على أنه لا يجوز مخالفة أمر الله ورسوله ولو قال أبو بكر وعمر وهم خير الناس بعد الأنبياء فمن دونهم من باب أولى أن لا يطاعوا فيما يخالف الشرع. وهذا حث من ابن عباس على اتباع الشرع والحذر من تعظيم الرجال فيما يخالف الشرع.

* قال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى قول سفيان.

أي عرفوا أنه صحيح إلى النبي ﷺ والصحابة. وهذا من إنكار الإمام أحمد على من يفعل ذلك وأنه لا يليق به. ثم قال: والله يقول ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ الفتنة: الشرك لعله إن رد بعض قوله أن يقع في شئ من الزيغ فيهلك: فيخشى عليه من الفتنة أن يفتتن ويقع في الشرك والردة، وهذا فيه حذر أيضًا عن مخالفة النص وإن كان المخالف عالمًا عظيمًا. وكان الصحابة ومن بعدهم يصرحون بأنه لا يجوز طاعتهم في مخالفة أمر الله ورسوله. فالوعيد فيمن استحل المحرم بفتوى زيد وهو يعلم أنه خلاف الشرع.

* عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي يقرأ ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون ..** ﴾.

فمن أطاع العلماء والأمراء في تحليل الحرام أو العكس واعتقاد أن هذا جائز مع العلم بأنه خلاف شرع الله فهذا يكون عبادة لهم وكفر أما إذا اتبعهم جهلاً أو اجتهادًا فهذا لا يكون عبادة لهم ولا يدخل في الوعيد لأن الإنسان مطالب بسؤال العلماء والأخذ بفتواهم فيما لا يعلم مخالفته لشرع الله.

٣٩- باب ـ قول الله تعالى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ، وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيداً﴾ الآيات [النساء: ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾؟ الآية [المائدة: ٥٠].

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرِّشوة، وقال المنافق نتحاكم إلى اليهود، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ. وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عُمَرَ، فذكر له أحدهما القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله».

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾.

أراد المؤلف بيان التحذير من التحاكم إلى غير الله وأن الواجب التحاكم إلى شريعة الله في كل الأمور كما قال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك

فيما شجر بينهم ﴾.. الآية. وقال تعالى ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـ الفاسقون ـ الظالمون ﴾ فهذه تدل على وجوب التحاكم إلى شرع الله وأنه لا يجوز التحاكم إلى غيره كائنًا من كان وهذا أصل مجمع عليه.

وتبين الآية أن بعض الناس يدعى الإيمان والإسلام وهو ليس كذلك بل هو من المنافقين. فإذا جاءت الحوادث والخصومات طلبوا التحاكم إلى غير الله وإلى الطاغوت وهو كل ما عبد من دون الله وكل من حكم بغير ما أنزل الله عن عمد وهوى، فالمنافقون يريدون من يوافق هواهم ويأخذ الرشوة ليحكم لهم بغير شرع الله وهذا دليل على نفاقهم وهذا شأنهم الإعراض عن الحق كما قال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا ﴾ فالواجب الحذر منهم ومن أخلاقهم الذميمة.

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾.

فيزعمون أنهم مصلحون مع إفسادهم لجهلهم وضلالهم ونفاقهم انقلبت عليهم الأمور حتى صار الفساد صلاحًا ولهذا قال تعالى ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾.

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾.

وصلاح الأرض باتباع الشرع وتحكيمه، وفسادها بمخالفة أمر الله والتحاكم إلى غيره.

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾.

أي يريد هؤلاء المتحاكمين إلى اليهود وغيرهم من الطواغيت التحاكم إلى حكم الجاهلية، وهل هناك حكم أحسن من حكم الله؟ فهو أعلم بمصالح عباده والعالم بما تنتهي إليه أمورهم وعواقبهم فهو عالم بكل شيء.

* عن عبد الله بن عمر مرفوعًا « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ».

أي لا يؤمن الإيمان الكامل الواجب حتى يكون هواه وإرادته وقصده وطلبه

تبعًا لما جئت به وهكذا ينبغي أن تكون ميول المؤمن ونياته خاضعة لحكم الله.
وضعف بعض العلماء هذا الحديث ولكن معناه صحيح.

قال الشعبي: كان بين رجلين من المنافقين واليهود خصومة وقيل..

فهذا يدل على أن المنافق أشر من اليهود لأنهم يلبسون على الناس أمرهم ويحصل بهم الضلال فصاروا بذلك في الدرك الأسفل من النار.

فالواجب التحاكم إلى شرع الله وعدم الرضى بغيره، وتدل قصة عمر أن التحاكم إلى غير شرع الله كفر وردة، ومن كره حكم الله فهو كافر.

وفي القصتين. نظر لكن المعنى صحيح.

الشعبي: عامر بن شراحبيل.

فائدة: « خلق الله آدم على صورته » أي خلق الله آدم سميعًا بصيرًا متكلمًا ذا وجه ويد وقدم ونحوه مما هو ثابت فالله يسمع وآدم يسمع والله متكلم وآدم متكلم.. ولكن لا يشبهه في الذات ولا في الصفات ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾.

أما من قال أن الضمير يرجع إلى آدم فخطأ وقصده الفرار من التشبيه.

* * *

٤٠- من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ﴾ الآية [الرعد: ٣٠].

وفي صحيح البخاري: قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»؟

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس «أنه رأى رجُلاً انتفض لَمَّا سَمِعَ حديثًا عن النبي ﷺ في الصِّفات استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَّق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند مُتشابهه»؟ انتهى.

ولما سَمعت قريشٌ رسول الله ﷺ يذكرُ الرحمَـن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُم يكفُرُون بِالرَّحْمَـٰنِ﴾.

هذا الباب عقده المؤلف لبيان وجوب إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وأن لا يغتر بأقوال أهل الإعتزال وأهل الباطل، بل يجب الأخذ بما قاله أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن سلك سبيلهم وهو الذي جاءت به الرسل جاءوا بإثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به، وهكذا فعل الصحابة وتابعوهم أمروا آيات الصفات وآحاديثها كما جاءت وأثبتوا ما دلت عليه من الأسماء والصفات عملاً بقوله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ﴿فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ﴿ هل تعلم له سميًا ﴾ أي لا سمي له ولا كفوء له سبحانه وتعالى.

وأنكرت الجهمية الأسماء والصفات وتأولوا الأسماء حتى صاروا معطلة ومقتضى قولهم نفي وجود الله بالكلية ولهذا حكم عليهم أهل السنة بالكفر، والواجب قتلهم إن لم يتوبوا فيستتابوا لذلك لإنكارهم ما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة والإجماع.

وأطلق المؤلف الترجمة ولم يحكم على جاحد الأسماء والصفات وحكمه الكفر.

* قوله تعالى ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾.

بين الله تعالى أن الرحمن هو ربنا وآلهنا وأن كفر الكافرين بالرحمن كفر بالله

فيجب على المؤمن أن يحذر من صفات هؤلاء الضالين، وعليه أن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان. وسمى إنكارهم الصفة: كفر بالرحمن فدل على كفر من أنكر الصفات.

*وفي صحيح البخاري قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

لفظ البخاري «أتحب أن يكذب الله ورسوله» فالمؤلف رواه بالمعنى.

والمعنى: أنه يجب على الواعظ والمذكر أن يذكر الناس بالألفاظ التي يعرفونها والأساليب التي يعقلونها حتى يستفيدوا وينتفعوا. لأن كل قوم لهم أساليب لأنك إذا حدثت قومًا بما لا يفهمون قد يصدقونك على غير ما أردت. وقد يفهمون غير ما قصدت. سواء في أسماء الله وصفاته أو أحكامه سواء باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأردية أو غيرها. والعرب أنفسهم يختلفون في فهمهم فيحدث كل أناس بما يعرفون من العبارات التي اعتادوها حتى يفهموا ما قلت وحتى لا يكذب الله ورسوله.

وهؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله في لغات الصفات وقعوا في خطر عظيم لأنهم تأولوا الصفات على غير تأويله وتكلموا فيها بغير ما ينبغي حتى عطلوا صفات الله.

وكثير منهم قد يكون فهم الأمر على غير ما هو عليه لعجمته، كما قال بعض السلف لعمرو بن عبيد قال: إن العصاة مخلدون في النار لأن الله أوعدهم بذلك. فقالوا له إن الله يخلف إيعاده ولا يخلف موعده. لأن إخلاف الإيعاد كرم وجود وأما إخلاف الموعد فلؤم ولهذا يتنزه الله عنه، وقالوا له: من عجمتك أوتيت أي ظننت إخلاف الإيعاد أمر مستقبح وليس كذلك كما قال الشاعر:

وأني وإن أوعدته أو واعدته .... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فهذا مدح.

* وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أنه رأى رجلاً.. هذا سند عظيم.

ما فرق هؤلاء: أي ما خوفهم وجزعهم أي ما أوجب لهم هذا الخوف والجزع.

ويجدون رقة: أي أنهم إذا سمعوا الآيات المحكمات من القرآن والسنة يجدون

رقة وخشوعًا وإذا سمعوا آيات الصفات اشتبهت عليهم وهلكوا عندها بالجزع والإنكار. وهذا يدل على أن هذا الشيء قديم وأنه وجد في زمن الصحابة فيهلكون عند الآيات والأحاديث التي تشتبه عليهم بإنكارها والشك فيها والريب. فدل على أن إنكار ما بيّنه الله لعباده أو الشك فيه هلاك.

والحق الإيمان بما أخبر الله به ورسوله فإن فهمته فالحمد لله وإلا فكله إلى عالمه وقل: الله أعلم بمراده واسأل أهل العلم وإياك والإنكار والجزع فإنه طريق المنافقين والهالكين. أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بكل ما جاء في الكتاب والسنة ويرقون له ويعملون به وإذا اشتبهت عليهم الآيات ردوها إلى المحكمات والبينات وفسروها بما اتضح من حكم الله ولا يضربون كتاب الله وسنة رسوله بعضها ببعض ولا يشكون، ويعلمون أن المتشابه لا يخالف المحكم بل هو من جنس المحكم ويكلون ما جهلوا إلى العالم بالكيفية وهو الله سبحانه. وأما معانيها فمعلومة من طريق اللغة العربية التي خاطب الله بها الناس، ولذا قال مالك حين سئل كيف استوى؟ قال الاستواء معلوم . . والسؤال عنه بدعة. أي عن الكيفية.

فبين أن معنى الاستواء معلوم والكيفية مجهولة.

فائدة: من قال أن الجنة والنار تفنيان فهو كافر فقد قال الله ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾.

أما القول بفناء النار فقول باطل غلط، والصواب عدم الفناء وهو ما عليه أهل السنة والجماعة.

فائدة: أجمع المسلمون على أن الأرض ساكنة والشمس تجرى. . والذين يقولون بدوران الأرض حول الشمس يسعون إلى القول بأن الشمس ساكنة وهذا كفر ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها..** ﴾.

* * *

٤١- باب قول الله تعالى

﴿يَعرِفُونَ نعمَةَ الله ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ الآية [النحل: ٨٣].

قال مجاهد ما معناه: « هو قول الرّجل: هذا مالى، ورثته عن آبائى».

وقال عون بن عبد الله: لولا فُلانٌ لم يَكُنْ كَذَا.

وقال ابن قتيبة ـ يقولون ـ هذا بشفاعة آلهتنا.

وقال أبو العباس: «بعد حديث زيد بن خالد» الذى فيه «وأن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» الحديث وقد تقدم ـ وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعَامَهُ إلى غيره ويشرك به.

وقال بعض السلف : هو كقولهم كانت الرِّيحُ طيبة والملاح حَاذِقًا، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثيرة.

﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم كافرون ﴾.

أراد المؤلف الحث على الاعتراف بنعم الله وشكره سبحانه على ذلك لأن كثيرًا من الناس قد يشغل عن هذا فيتمتع بنعم الله ولكنه لا يشكره بل ينسبه إلى أسبابه وقوته وأعماله ونحو ذلك ويغفل عن المنعم سبحانه، ولو شاء الله لسلبه الأسباب وسلبه القوة فهو الذي أعطاه السمع والبصر والذكاء والحذق وغير ذلك.

وهذا من خلق الكافرين أن يقول مثلاً هذا مالي ورثته من آبائي وما أشبه ذلك.

ثم ينكرونها: أي يتمتعون بها ويعرفونها ثم ينسبونها إلى آلهتهم وأوثانهم من باب النكران بالنعم.

قال مجاهد: هو قول الرجل ورثته عن آبائي.

أي يقول ذلك تبجحًا وتعظمًا بهذا الشيء من غير أن يعترف بنعم الله ويغفل عن ذلك، وليس المراد أن يقولها بقصد الإخبار لأنه لا بأس أن يخبر بهذا على أنه سبب، بل أن يقول ذلك غافلاً ناسيًا المنعم الحقيقي.

وقال عون بن عبد الله: يقولون لولا فلان لم يكن كذا.

وهذا خطأ أيضًا لأنه ينبغي أن يقول لولا الله ثم كذا فينسب النعم إلى الله لأنه هو المسدي والمعطي سبحانه وتعالى.

قال ابن قتيبة: يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا فينسبونها إلى آلهتهم.

وهذا كذلك من قول الكافرين، والواجب على المسلم أن يخالفهم وينسب النعم إلى الله لأنه هو المسبب تلك الأسباب وعليه أن يقوم بالشكر والعمل بأوامره ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾.

قال أبو العباس: هذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف أنعامه..

يضيف أنعامه إلى غيره ويشرك به أي تبجحًا بذلك واعترافًا وافتخارًا بذلك على غيره.

قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا.

أي إذا سارت السفينة ووصلت سالمة قالوا هذا، ونسوا المنعم الذي يسر الريح وعلم الملاح حتى صار حاذقًا، والواجب أن ينسبها إلى الله تعالى مع معرفة الأسباب كأن يقول: إن الله يسر لنا ريحًا طيبة فهذا لا بأس به.

وهذا القول من دقة السلف وعنايتهم وحرصهم على شكر الله والاعتراف له سبحانه وتعالى.

* * *

٤٢- باب قول الله تعالى
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لله أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كُليبة هذا لأتانا اللُّصُوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إلي من أن أحلف بغيره صادقًا».

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وما شاء فلان ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح.

وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال ويقول لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا لولا الله وفلان.

﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾.

أراد المؤلف بهذا الباب تحذير الناس من اتخاذ الأنداد، وهو جمع ند، وهو المثل والنظير، وسمى الله من اتخذ آلهًا: أنداداً لأنهم عبدوه مع الله كالقبور والأشجار والكواكب وغيرها كلها تسمى: أنداداً إذا دعاه أو استغاث به أو طلب منه شيئًا أو اعتقد نفعه أو ضره.

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أي تعلمون أنه الخلاق الرزاق وهو الإله الحق سبحانه وتعالى، وقال ذمًا لبعض الناس: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ والمقصود من كل هذا الدعوة إلى الإخلاص لله وحده لأنه المعبود الحق والإله الحق كما قال تعالى ﴿ وآلهكم إله واحد ﴾ ﴿ ومن يدع مع الله إله آخر

لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾.

قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء..

فسر ابن عباس كل ما ذكر بأنه شرك، ومراده أنه داخل في الشرك الأصغر؛ لأن الشرك الأصغر يدخل في اتخاذ الأنداد. والأعظم من ذلك دعوة الأصنام والأحجار فإنه شرك أكبر.

وهنا التنبيه على الشرك الخفي (الشرك الأصغر) لأنه يوصل إلى الشرك الأكبر فذكره ليحذر الناس من هذا وهذا ولما قيل للنبي ﷺ: (ما شاء الله وشئت) قال: «أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده» فجعل قوله ما شاء الله وشئت.. اتخاذًا للأنداد فوجب الحذر من مثل هذه الكلمات وغيرها. لأن الواو تقتضي المشاركة والمساواة ويلحق بهذا: لولا البط في الدار، وكذلك الكلب معهما ينبهان أهل البيت على الغريب وهذا خطأ بل يقول: لولا الله ثم البط لأن السبب الوحيد هو الله وهذه أسباب فلا ينبغي أن توكل إليها الأمور بل لله وحده.

فلذلك لا تذكر وحدها ولا بالشريك بل مع الله بل تؤخر بـ(ثم).

وكذلك قولهم: لولا فلان لغرق فلان فهذا خطأ بل يقول: ثم فلان.

وعن عمر مرفوعًا « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ».

الصواب هنا عن ابن عمر.. والشك يحتمل أنه من ابن عمر أو أحد الرواة..

والمعنى واحد لأن الحلف بغير الله تعظيم له وأنه صالح لهذا الحلف، وهذا لا يليق إلا بالله فهذا الذي يعظم لأنه عالم السر وأخفى وعالم ما في القلوب.

وكانت العرب تحلف بآبائها والمعظمين، وكان هذا موجودًا في أول الإسلام ثم نهى النبي ﷺ عنه وحذر منه وقال « ولا تحلفوا بآبائكم ولا أمهاتكم ولا الأنداد » وقال « من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت » وروى الامام أحمد بإسناد صحيح عن عمر نفسه عن النبي ﷺ « من حلف بشيء دون الله فقد

أشرك » هذه رواية عمر.

وهذا من الشرك الأصغر وقد يكون من الأكبر إذا قام بقلب الحالف أن هذا المحلوف به له شأن ويتصرف في الكون ويستحق أن يعبد من دون الله. وإلا فهو من الأصغر، ولهذا ورد أنهم في أول الإسلام يحلفون بآبائهم ثم نهوا عنه إجلالاً للتوحيد وتعظيمًا لجناب الله وسدًا للذرائع الموصلة إلى الشرك.

قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقًا.

لأن الحلف بغير الله شرك والحلف بالله كاذبًا معصية، والشرك أعظم من الكذب وجنس الشرك أخطر من جنس المعاصي، والكذب لا يجوز ومحرم.

عن حذيفة مرفوعًا: « لا تقولوا ما شاء الله وما شاء فلان ولكن قولوا.. »

لأن الواو تقتضي المساواة والتشريك فلا تجوز بخلاف (ثم) فإنها للتراخي فهي جائزة، والكمال أن يقول لولا الله وحده.

وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقال (أعوذ بالله وبك...).

فلا يجوز: أعوذ بفلان، ولا بالله وبفلان، بل يقول: أعوذ بالله، ثم، وهذا من كمال التوحيد، والواجب على المسلم أن يحرص على كمال توحيده وإيمانه وأن يبتعد عن الشرك دقيقه وجليله، وأن يبتعد عن المعاصي فإنها تنقص التوحيد والإيمان واليقين.

فائدة: حديث (أفلح وأبيه) هذا قبل النهى في أول الإسلام.

- لا يجوز أن يقول لولا الله ثم النبي لما اهتدينا.

- حديث (لا يخاف إلا الله والذئب) ليس من هذا الباب بل هو جائز.

- إذا قال: بذمتك أسألك. أو بالأمانة: إن قصد به الحلف لم يجز وإلا فلا، وجاز.

يجوز أن يقول أعوذ بالله منك لأن النبي قال «لقد عذت بعظيم» ثم تركها.

- إذا قال رجل لمن أحسن إليه أنت المنقذ العظيم فهذا بحسب نيته، والأفضل أن يقول: لولا الله ثم أنت لأن قوله أنت المنقذ العظيم، قد توحي بشيء.

٤٣- باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن عمر ـ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله) رواه ابن ماجه بسند حسن.

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب القنع باليمين وإن كان في نفسه شيء من صدق الحالف أو علم كذبه أو تهمته بذلك ومع ذلك فعليه أن يقنع بالحكم الشرعي ويرضى به لأنه ليس للناس إلا ما ظهر وكذلك ليس للقاضي إلا ما ظهر بشهادة العدول أو يمين الخصم عند عدم البينة.

عن ابن عمر مرفوعًا «لا تحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصدق ومن. .».

لا تحلفوا بآبائكم: نهى عن الحلف بالآباء والأمهات وغيرهم وكانوا يحلفون بهم في أول الإسلام وفي أول الهجرة إلى المدينة ثم نهى عنه.

من حلف بالله فليصدق: أي يجب على من حلف بالله أن يصدق ويتحرى الصدق ويحذر الكذب ولهذا قال النبي ﷺ « من حلف على يمين وهو كاذب لقى الله تعالى وهو غضبان » فيجب الحذر من الحلف بالله كاذبًا خاصة في الخصومات، واقتطاع حق المسلم باليمين الكاذبة ولهذا ورد في الآخر للحديث « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله عليه النار وحرم عليه الجنة» قالوا: وإن كان شيئًا يسيرًا قال «وإن كان قدر النواة» رواه مسلم فالواجب الحذر من ذلك وأن لا يأخذ حق أخيه المسلم إلا ببينة شرعية ووجه شرعي، وإذا طلب اليمين فليحذر الكذب.

من حلف بالله فليرض: هذا هو الشاهد أي ليرض وليقنع وليس له إلا هذا، لأنه هو الذي فرط ولم يشهد ولم يكتب ولم يجعل بينة فعليه أن يلوم نفسه، وليس له إلا الحكم الشرعي باليمين لتفريطه وسوف يعطيه الله حقه يوم القيامة.

ومن لم يرض فليس من الله: وعيد شديد على من لم يرض بحكم الله ولم يطمئن إليه.

فائدة: كفارة من حلف كاذبًا أن يتوب ويرد الحق لأصحابه.

٤٤- باب.قول (ما شاء الله وشئت)

عن قتيلة - (أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت. وتقولون: والكعبة فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: (ما شاء الله ثم شئت). رواه النسائي وصححه.

وله أيضًا عن ابن عباس «أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده».

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: (رأيت كأني أتيتُ على نفر من اليهود - قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيرٌ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون - ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعدُ فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم. وأنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد. ولكن قولوا ما شاء الله وحده).

أراد المؤلف بيان حكم قول (ما شاء الله وشاء فلان) وما أشبه ذلك وأنه يجب أن يقول: ثم فلان وهذا هو مقتضى التوحيد والإخلاص، وفيه كمال التوحيد والبعد عن الشرك دقيقه وجليله. فحكم هذا أنه لا يجوز فقول المؤلف باب كذا.. أي حكم كذا.

فالأكمل ما شاء الله وحده. وما شاء الله ثم شاء فلان وهذا جائز. وما شاء الله وشاء فلان لا يجوز وهو من الشرك الأصغر ومنقص للتوحيد وهكذا أمثاله.

عن قتيلة أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال أنكم تشركون، تقولون...

فيه أن الناس من أهل الباطل قد يفهمون أشياء ومسائل إذا كان عندهم هوى

وإن كانوا هم واقعون في ذنب وفسق وكفر أعظم من ذلك: ولهذا عاب اليهود على المسلمين ـ لما في قلوبهم من الغيظ والحقد على الرسول ﷺ ـ وقد أصابوا في قولهم، ولهذا أمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: ما شاء الله وثم شئت، وأن يقولوا: ورب الكعبة.

وله أيضًا عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت..

أجعلتني لله ندًا: وفي لفظ أجعلتني لله عدلاً.

لابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت..

أنكم لأنتم القوم لولا: أي أنكم تستحقون المدح لولا قولكم كذا.

قوله « وكان يمنعني كذا وكذا: في رواية وكان يمنعني الحياء أن أنهاكم عنها. أي لأنه لم يأت فيها من الله نهى فلما جاءت الرؤيا كانت سببًا للمنع ونزل الوحي بمنعها وأن يقولوا ما شاء الله وحده.

وقد ورد فيما أخرجه الشيخان في قصة الأعمى والأبرص والأقرع قوله فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك وهذا هو الواجب.

وهذا القول ما شاء الله وفلان من الشرك الأصغر وقد يكون من الأكبر إذا أراد أن له أشياء مستقلة يتصرف فيها.

* * *

٤٥- باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقـول الله تعـالى: ﴿وَقَالُوا: مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهلِكُنا إلاَّ الدَّهرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قـال: (قال الله تعالى يُؤذِيني ابن آدم. يَسُبُّ الدَّهرَ وَأنا الدهرُ أُقلِّبُ الليلَ والنهار).

وفي رواية «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».

أراد المؤلف بهذه التـرجمة بيـان أن سب الدهر وغيره من المعـاصي من جملة الأشياء التي تناقض التوحيد وتضعفـه، وتنافي كماله فالواجب الحذر من الأسباب التي تضـعف الإيمان من المعـاصي وسب الدهر وسب الريـح وسب مالا يستـحق السب وما يغضب الله.

لأن الدهر مخلوق مـدبر ليس في يده تصرف، فـهو مدبـر من الله تعالى وهو الليل والنهـار فسبـه إيذاء لله، والله لا يضره شيء ولكن المعـاصي تؤذي الله لأنها تغضبه كما قال تعالى ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾.

وسب الدهر هو سب الزمان وهو الليل والنهار كأن يقول قاتل الله هذه الساعة ولعن الله هذه الساعة وهذا اليوم ولا بارك الله في هذا اليـوم وما أشبه ذلك فسب الدهر هو شتـمه أو لعنه أو الدعاء عليـه، أما وصفه بالشـدة فليس من السب كأن يقول هذا يوم شديد وعسر ونحس أو بارد أو حار.

وفي الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا «قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر..

فبين هنا معنى الدهر وأنه الليل والنهار وهو الذي يقلبه فسبه سب للذي خلقه وقلّبه فـلا يجوز ذلك، وقـد غلط من قال أن الدهر من أسـماء الله (كـابن حزم) والمقصود أنه خالق الدهر ومكون الكائنات في الدهر.

ومن ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: « لا تسبوا الريح» وهكذا سب الإبل والغنم والبقر وسب كل من لا يستحق السب فسب هذه نقص في إيمانه وتوحيده.

٤٦- باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى: ملك الأملاك. لا مالك إلا الله».

قال سفيان: مثل شاهان شاه.

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه» قوله: (أخنع) يعني: أوضع.

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان النهي عن الأسماء التي يكون لها تعلق بمشابهة أسماء الله تعالى لأنه سبحانه له أسماء يختص بها ليس لأحد أن يتسمى بها مثل الرحمن ومالك الملك والخلاق ورب العالمين وحاكم الحكام وسلطان السلاطين ونحوها. لأن من كمال التوحيد وتمام التوحيد عدم التسمي بهذه الأسماء والتسمي بها ينقص التوحيد والإيمان، ودخول فيما لا ينبغي.

وكذلك قاضي القضاة وهذا يقع في بعض الدول وإن كانوا يريدون به قاضي قضاة البلد لكن إطلاقه غير مناسب ولا ينبغي.

أما إذا قيد: قاضي قضاة مصر أو مكة وغير ذلك فهذا أسهل، وتركه أولى كأن يسمى: رئيس القضاة أو أمين القضاة مما يبتعد به عن هذه الصفات المطلقة.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إن أخنع اسم عند الله: رجلٌ..

أخنع: أوضع وأذل وأردأ اسم.

فأنكر النبي ﷺ هذا الاسم لأنه يوهم وصفًا لا يليق به، ولا يليق إلا بالله تعالى فليس الإنسان ملك الأملاك بل هو ليس أهلاً له، وعليه أن يتسمى بالأسماء الأخرى التى تليق به.

شاهِ شاه: اسم عند العجم معناه ملك الملوك.

٤٧- باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: إن الله هو الحكمُ وإليه الحُكْمُ. فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضِيَ كلا الفريقين، فقال: ما أحسن هذا، فمَا لَكَ منَ الولَد ؟ قلتُ: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: فَمَن أكْبَرُهُم؟ قلت: شريح، قال: فأنت أبو شريح. رواه أبو داود وغيره.

أراد المؤلف بيان وجوب احترام أسماء الله والحذر من امتهانها أو احتقارها أو تسمية غير الله بها من الأسماء التي اختص الله بها ولهذا شرع تغيير الأسم لأجل احترامها وتعظيمها.

والأسماء قسمان:

١- أسماء لا يسمى بها سوى الله سبحانه: كالرحمن والخالق ورب العالمين وغيره.

٢- أسماء يسمى به غيره سبحانه فيكون لله ما يليق به وللعبد ما يليق به والمراد بها هنا الأول.

عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم فقال له النبي إن الله هو الحكم.

قوله ما أحسن هذا: أي ما أحسن هذا العمل الذي هو الإصلاح بينهم والتوسط ليرضوا وتزول الخصومات وهذا شيء مطلوب وخير.

فوائد الحديث:

ينبغي احترام أسماء الله وتغيير الأسم لأجل ذلك ولهذا غير اسمه من أبي الحكم إلى شريح، وفيه أن الأفضل أن يكنى الانسان بأكبر أولاده.

وفيه شرعية الإصلاح بين الناس وأنه شيء مطلوب وأنه ينبغي لكبراء الناس أن يتوسطوا بين قومهم في حل الخصومات حتى لا تبقى الشحناء والعداوة.

والإصلاح بينهم أفضل من الحكم لأن الحكم يحصل به حزازات، لكن إذا اصطلحوا عن طيب نفس كان أفضل لزوال ما في النفوس وتحل المحبة والمودة.

قوله رواه أبو داود: ظاهر كلام المؤلف أنه يرى أن الحديث صالح للحجة ولهذا اعتمده واكتفى به. واستدل به أنه لا يسمى بالحكم وأبى الحكم، لأن هذا وصف لله تعالى وهو الحاكم بين عباده وله الحكم في الدنيا بشرعه، وفي الآخرة يحكم بنفسه.

ولكن يرد على هذا ما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة من أسماء كالحكم والحكيم ولم يغيرها النبي ﷺ وهي أصح من هذه الرواية. وهذا مما يدل على أن الحديث في صحته نظر لأن النبي ﷺ قد أقر بعض الأسماء كحكيم بن حزام والحكم بن عمرو الغفاري وأسماء أخرى ولم يغيرها، ولو كانت منكرة لغيرها. ولأن الحكم يكون بالشرع بين الناس ولا يضره أن يتسمى بذلك، وأن يسمى القاضي والحاكم وما أشبه ذلك.

* * *

٤٨- باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ فهو كافر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

وعن ابن عُمَرَ ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة، دخل حديث بعضهم في بعض: أنه قال رَجُلٌ في غزوة تبوك (ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء، أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا. ولا أجبن عند اللقاء ـ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء ـ فقال له عوفُ ابن مالك: كذبت. ولكنَّك مُنافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ. ليخبره فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته. فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنَّا الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظرُ إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكبُ رجليه، وهو يقول: (إنما كنا نخوض ونلعبُ) فيقول له رسول الله ﷺ: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ؟ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه.

هذا الباب لبيان حكم المستهزئين بالله وبالقرآن وبالرسول ﷺ وأن حكمهم أنهم مرتدون إذا كانوا مسلمين وإن الاستهزاء ردة وكفر. فجواب الشرط فقد كفر وهو معلوم لقوله تعالى: ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته..** ﴾.

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة، دخل حديث بعضهم في بعض أنه قال رجل في غزوة تبوك « ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء. . ».

أرغب بطونًا: أي أكثر أكلاً.

أجبن عند اللقاء: أي ليسوا بشجعان.

قال عوف بن مالك: كذبت: هذا فيه إنكار المنكر ممن سمعه وأن عليه منعه لا سيما في مثل هذا المنكر العظيم الذي فيه سب لله ورسوله ودينه.

فوجد القرآن سبقه: أي نزلت فيهم وهي قوله تعالى ﴿ **ولئن سألتهم..** ﴾ فهذا يبين أن المستهزئ بالقرآن أو السنة أو الرسول ﷺ فهو كافر، ولو زعم أنه يقضي

بها الوقت أو يتحدث حديث الركب ويقطع الطريق أو أنه غير متعمد لذلك فهو كافر، لأن التلاعب بهذا لا يجوز لا في الطريق ولا في غيره، ولأنه يدل على نفاق في قلبه وخبث وحقد على أهله، والمسلم لا يستطيع أن يقول مثل هذا الذي قاله الرجل وخاصة قوله:

أكذب ألسنًا: فهذا تكذيب للرسول ﷺ وأصحابه. وفيه رمى لهم بالجبن وأنهم حريصون على الأكل وهذا يدل على الحرص على الدنيا.

فجاء الرجل يعتذر فلم يكن النبي ﷺ يبالى بما يقول ولا يرد عليه إلا بقوله ﴿ **أبالله وآياته ورسوله** ﴾.. أي أنه لم يقبل عذره وبين له أنه كافر بهذا العمل.

فهذا يبين أن المستهزئ بالشرع كافر بعد الإيمان إذا تنقص الرسول أو قال أنه جبان أو كذاب أو لم يبلغ الرسالة وما أشبه ذلك مما يدل على التنقص، وهكذا من قال أن القرآن متناقض أو أنه لم يستوف ما يحتاجه الناس أو الشريعة لم تستوف ما يحتاجه الناس وما أشبه ذلك مما هو على سبيل الذم والنقص.

أما إذا قال أن القرآن قد جاءت السنة ببيان أشياء ليست فيه فهذا حق لكن إن قاله قاصدًا الذم وأن الناس بحاجة إلى القوانين وأن النصوص لا تكفي فهذا كفر أكبر وردة، وكذا من قال أن الجنة خيال ليست حقيقة.

* * *

٤٩- باب ما جاء في قول الله تعالى

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به.

وقال ابن عباس يريد: من عندي.

وقوله ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص:٧٨].

قال قتادة: علمٍ مني بوجوه المكاسب.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهلٌ.

وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليكَ؟ قال:لَوْنٌ حَسَنٌ، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به قال فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطى لونا حسنا وجلداً حسناً، قال فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأعطي ناقة عُشراء، فقال بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس به، فمسحه فذهب عنه، وأُعطي شعراً حسنا، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقرُ أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها.

قال: وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال أن يَردُ الله إلي بصري فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم، فأعطي شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا. فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحِبَال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحَسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به في سفري. فقال: الحقوق كثيرة فقال له: كأني أعرفك؟ ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله عز

وجل المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كُنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، قال: ثم إنه أتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنت. قال وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبالُ في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال قد كنت أعمى فرد الله إلى بصري. فخذ ما شئت، ودع ما شئت. فوالله لا أجهدُك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» أخرجاه.

﴿ ولئن اذقناه رحمة من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾.

هذا الباب عقده المؤلف لبيان ما غلب على النفوس من إنكارها النعم وجحدها وكفرانها وعدم الاعتراف بها لمعطيها سبحانه وتعالى.

وفي الآية: أن هذا القول طبيعة من طبيعة بني آدم إلا من عصمه الله، من إنكارهم النعم ونسبتها لنفسه وعدم الاعتراف بها لخالقها عز وجل فمن شأنه الكفر بالنعم وأن يقول هذا عملي ومن أسبابي وغير ذلك.

والمقصود من هذا الحث على شكر النعم وإسنادها لله وإن كان له أسباب لكن كله بفضل الله، هو الذي أنبت له النبات ويسر له التجارة والربح. ولا مانع أن يسنده إلى سبب من الأسباب لكن يبين أولاً أنها من الله ويشكر ثم لا مانع من ذكر الأسباب لكن أن نسبها إلى أسبابه ونسى المنعم فهذا منكر.

عن أبي هريرة مرفوعًا « إن ثلاثة من بني اسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى..

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة قصها النبي ﷺ للعظة ولئلا نقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من الأخطاء.

فهؤلاء الثلاثة ابتلاهم الله بالضراء أولاً ثم بالسراء فكفر اثنان بنعمة الله وشكر واحد وهذا شاهد لقوله تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ وفيه الحث على

شكر النعم والاعتراف بها لله.

والأدب في السؤال حيث قال لا بلاغ إلا بالله ثم بك.

وفيه بيان قدرة الله وأنه يقول للشيء كن فيكون.

وعلى المؤمن أن يكون على حذر من عقوبة الله ومداومة الشكر له سبحانه.

* * *

٥٠- باب قول الله تعالى

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهما﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب.

وعن ابن عباس في الآية، قال: «لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة لتُطيعاني أو لأجعلن له قرنى أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن، يُخوِّفهُمَا، سَمِّيَاهُ عبد الحارث، فأبيًا أن يطيعاه فخرج ميتًا، ثم حملت فأتاهما فقال مثل قوله فأبيا أن يُطيعاه فخرج ميتاً. ثم حملت فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حُبُّ الولد، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله: ﴿جَعَلاَ لَهُ شركَآء فيما ءَاتَـٰهُمَا﴾. رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا﴾ [الأعرف: ١٨٩] قال: أشفقا أن لا يكون إنسَانًا.

وذُكِرَ مَعنَاهُ عن الحسن وسعيد وغيرهما.

﴿ فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ﴾.. الآية.

أراد المؤلف بيان تحريم التعبيد لغير الله، وأنه لا يجوز أن يعّبد أحد لغير الله فلا يقال: عبد النبي أو الكعبة أو عبد الحسين وما أشبه ذلك بل يكون التعبيد لله وحده كعبد الرحمن وعبد الله.. إلخ لأن الله ذم من فعل ذلك بقوله تعالى **﴿فلما آتاهما صالحًا ﴾**.. وهذا ذم وعيب لمن فعله.

وهذا السياق في ذكر آدم وحواء حيث أطاعا الشيطان في تسميته عبد الحارث.

وقال آخرون: إن المراد بالآية: جنس من بني إسرائيل وأن هذا وقع في بني إسرائيل. ولكن ظاهر السياق يأبى هذا بل هو كما قال ابن عباس، وغيره من

السلف وإن المعصية قد وقعت منهما والمعصية قد تقع من الأنبياء إذا كانت صغيرة كما قال العلماء.

ويحتمل أنهما حين فعلا ذلك كانا يعتقدان ذلك جائزاً فلهذا فعلاه ولم يعلما أنه منكر وأنما كرهاه أولاً ثم خضعا لوسوسته وما أراد.

وبين الله فيما أنزله على رسوله ﷺ أنه لا يجوز. وهذا الحكم يناط بشريعة محمد ﷺ فهى الشريعة العامة، وما كان قبلنا ففيه إباحة لبعض المسائل ومنع لبعضها.

حاشا عبد المطلب: فمستثنى من النهي لأن الرسول ﷺ أقر ذلك ولم يغيره. ومن الصحابة: عبد المطلب بن ربيعة لأن الأصل فيه أنه تعبيد بالعتق والرق وسموه عبد المطلب ـ واسمه شيبة بن هاشم ـ لأنهم ظنوه عبداً للمطلب بسبب تغير وجهه من السفر والمطلب عمه. فأقر هذا الإسم في الاسلام بخلاف غيره من الأسماء.

شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته: لأنهم أطاعوه في هذا الاسم عن غير علم، وكل هذا من باب كمال التوحيد وكمال الخضوع لله وسد وسائل الشرك.

مسألة: قول الرسول ﷺ « أنا ابن عبد المطلب » هذا إخبار عن اسم ماضي فلا يضر لأنه مشتهر به مثل عبد مناف وعبد عمرو إذا كانت من باب الإخبار.

* * *

٥١- باب قول الله تعالى

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَـٰئِهِ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠].

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس (يلحدون في أسمـٰئه) يشركون.

وعنه: سموا اللات من الإله. والعزى من العزيز.

وعن الأعمش: يُدخِلُونَ فيها ما لَيسَ مِنها.

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾.. الآية.

بين الله تعالى أن له سبحانه الأسماء الحسنى التي لا يعتريها نقص بل هي كمال كلها تدل على معان عظيمة يوصف بها على الوجه اللائق به فيدعى بها فيقال: يا رحمن . . يا عزيز، يا غفور اغفر لنا . . وهكذا.

والإلحاد في أسمائه: الميل عن الحق والاشراك فيها مع الله كمن جعل لغير الله شيئًا من العبادة فقد أشرك فيها مع الله غيره وجعلها إلهًا، وصار كافرًا بذلك.

وهكذا من ألحد فيها بأن أمالها عن الحق وزعم أنه لا معنى لها كالجهمية والمعتزلة الذين نفوا الصفات أو الأسماء والصفات جميعًا فقد ألحدوا أي مالوا عن الحق.

ومنه اللحد في القبر أي جعله مائل من جانب.

والإلحاد قسمان:

١- إلحاد أكبر: وهو ما يقع من الكفرة.

٢- إلحاد ناقص: وهو ما يقع من بعض المسلمين في عدم انقيادهم للحق على التمام والكمال فيكون لهم نوع إلحاد وميل عن الحق فيفوتهم من الإيمان والإسلام بقدر ذلك.

قال الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها: هذا نوع من الإلحاد أن يسمى الله بأسماء ما أنزل بها من سلطان فهي نوع من الإلحاد أي نوع من الباطل.

وكذلك قول بعضهم في اللات من الإله، والعزى من العزيز، فهذا نوع إلحاد وكذلك الوقوع في المعاصي نوع من الإلحاد لكنه أصغر.

ومن جحد الله أو أشرك معه فهو إلحاد أكبر.

٥٢- باب لا يقال السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ. قلنا: السلام على الله من عباده. السلام على فلان وفلان. فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله فإن الله هو السلام».

قوله « لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام »

السلام له معنيان :

١- أي هو السالم من كل نقص وعيب فله الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

٢- المسلّم لعباده أي الذي يعطي السلام، فلا يقال السلام على الله: لأن هذا دعاء والله غني عن أحد، وليس بحاجة إلى دعاء الناس، وإنما المشروع هو تعظيمه وتقديسه والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال وأنه المحسن والضار.

ويقال للمخلوق: السلام عليه لأن محتاج إلى الغافية والدعاء.

مسألة:لو قال: (لولا الرسول ما اهتدينا) وأراد دعوة الرسول لا بأس، والأفضل أن يقول: لولا الله ثم دعوة الرسول.

* * *

٥٣- باب قول اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقُل أحَدُكُم ـ اللهم اغفر لي إن شئت. اللهم ارحمني إن شئت. ليعزم المسألة، فإن الله لا مُكرِهَ له».

ولمسلم «وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

أراد المؤلف بهذا أن يبين أنه من كمال الإيمان وكمال التوحيد: العزم على المسألة وعدم التردد وأن المؤمن إذا دعا ربه فليعزم ولا يتردد فإن جود الله عظيم وهو الغني الحميد فلا يليق بالمؤمن أن يستثنى في سؤاله، وإنما يستثني في سؤال المخلوق لأنه قد يعجز أو يمتنع، أما الرب فهو الغني القادر.

في الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا « لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمنى » ..

فلا يليق بالعبد أن يسأله بالاستثناء لأنه كأنه يكون غير مضطر ولا محتاج إلى هذا السؤال. والواجب العزم فإن الله لا مكره له وليس بعاجز.

ولمسلم « وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه ».

بل هو الله تعالى العظيم الشأن الغني الحميد وكل شيء يعطيه عباده فهى عنده قليلة يسيرة وإن أعطاهم شيئًا عظيمًا سبحانه وتعالى.

فعلى المؤمن أن يكون شديد الرغبة فيما عند الله، شديد التعلق بالله، شديد اللجوء إليه والإنكسار، وأن يسأله سؤال الراغب المضطر ولا يستثني، وكذلك إذا دعا لإخوانه لا يقول: غفر الله لك إن شاء أو رحمك إن شاء الله. بل يجزم ولا يقول إن شاء الله ولو تبركًا فلا يستثنى أبدًا.

ولا يقول: اللهم اغفر لي ما شئت.

فائـدة:

* الدبلة ليس لها أصل وهي من أعمال النصارى.
* الأحاديث الواردة في سورة الكهف كلها ضعيفة ولكن يشد بعضها بعضًا

وقد صح موقوفًا وهذا مما يقوي المرفوع.

* لا يجـوز أن يقول: يا رسـول الله لو رأيت حـال الأمة لأشـفـقت عليهـا ولدعوت لها.. إلخ.

لأنه ﷺ لا يسـمع ولا يرى ما نقـول له كمـا في الحديث « إنك لا تدري مـا أحدثوا بعدك ».

* * *

٥٤- باب لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقُل أحدكم أطعم ربَّكَ. وَضِّيء ربَّكَ. وَلْيَقُل: سيِّدي وَمَولايَ. ولا يَقُل أحَدُكُم: عَبدِي وأَمتِي. ولِيَقُل: فتاي وفتاتي وَغُلامي».

هذا الباب مما ينافي كمال التوحيد. أي عندما يخاطب الرجل غلامه أو جاريته فلا يقول: عبدي وأمتي تأدبًا مع الله تعالى، بل يقول: فتاي وفتاتي وغلامي وخادمي ونحو ذلك لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله. فهذا من باب الكمال والتأدب مع الله عز وجل والاعتراف له سبحانه بأنه المالك لكل شيء والمتصرف في كل شيء.

أما إذا قيل: عبد فلان أو إماء فلان فهذا من باب الإخبار وهو أسهل وليس من باب الإضافة إلى النفس.

لا يقل أحدكم أطعم ربك: هذا من باب التأدب أيضًا لأن رب الجميع هو الله والله تعالى لا يطعم فهو الغني فلا يقال ذلك بإطلاق.

بل يقول سيدي ومولاي وعمي: لأن هذه عبارات معروفة لا تشتبه بالربوبية والسيد هو المالك والرئيس هو مالك لهذا الغلام.

وهكذا المولى له معان كثيرة فهو المالك والقريب والناصر.

وفي رواية لا يقل: مولاي فإن مولاكم الله: ولكن المحفوظ عند العلماء رواية الإذن بهذا لأن كلمة المولى مشتركة وقد قال تعالى ﴿ **وإن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ أي لا ناصر لهم بل هم مخذولون بالنسبة للناصر لدين الله. فلا حرج إن يقول: مولاي وسيدي واصطلح الناس الآن بكلمة عمي أي لمن ملك وغير ذلك مما اصطلحوا عليه بدلاً من (الرب).

٥٥- باب لا يرد من سأل الله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه. رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

ذكر المؤلف هذا الباب لما فيه من تعظيم الله وإجلاله في إعطاء من سأله وحديث ابن عمر من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ.

* عن ابن عمر مرفوعًا « من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سأل بالله فأعطوه ».

من سأل بالله فأعطوه: تعظيمًا لله وإجلالاً له وقد جاءت عدة أحاديث تدل على كراهة السؤال بالله لما فيه من التشديد على الناس ولكن من سأل حقًا كالزكاة أو من بيت المال وجب أن يعطى، أما غير ذلك فالأفضل أن يعطى ولا ينبغي أن يسأل بالله عملاً بالأحاديث الدالة على كراهة ذلك.

ومن استعاذ بالله فأعيذوه: فمن استعاذ بالله شُرع أن يعاذ ولهذا لما استعاذت عمرة بنت الجون من الرسول ﷺ قال لها « لقد عذت بمعاذ » أي بعظيم « فالحقي بأهلك» فمن استعاذ بالله شرع أن يعاذ، إذا لم يكن حقًا عليه، فإن استعاذ بالله في إسقاط حق عليه فلا يعاذ لأن الله أمر بأداء الحقوق كما إذا قال: أعوذ بالله من أن تلزموني بالصلاة أو الزكاة أو الدين أو الكفارات ونحو ذلك. فإن استعاذ من تولية القضاء مع وجود من يقوم مقامه أو الإمارة ونحو ذلك مما فيها خطر؛ شرع أعاذته كما يروي عن ابن عمر لما أمره عثمان بالقضاء استعاذ بالله أن يولي القضاء فأعاذه عثمان وهذا - إن صح - فهو محمول على أن هناك من يقوم مقامه وكان الصالحون في عهد عثمان لذلك كثيرون.

ومن دعاكم فأجيبوه: لما في إجابة الدعوة من المصالح والتواصل والتآلف والتقارب فلهذا شرعت الإجابة سواء كانت لعرس أو غيره وأهمها العرس وفي

الحديث «من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله» مسلم .

فالواجب أن تجاب إلا:

١- أن يكون له ما يمنعه كأن يكون مريضًا أو بعيدًا أو يشق عليه الإيتان ونحوه.

٢- إن كان فيها مانع: بأن يكون فيها منكر كالملاهي والأغاني والخمر فإن كانت الدعوة سليمة وجب أن يجيب أو تأكد ـ على الأقل لهذا الحديث وغيره.

- ولا تجب الدعوة إلا إذا خصه بها.

ومن صنع معكم معروفًا فكافئوه: هذا من مكارم الأخلاق وكمال الإيمان أن يكافأ على المعروف بما يستطيع إن كان مالاً فبالمال وإن لم يكن فبالكلام الطيب والدعاء.

حتى تروا : يروى بفتح التاء أي حتى تعلموا ويروى بضم التاء أي حتى تظنوا أنكم كافأتموه. والمعروف يتنوع.

لا ينبغي دعاء صفات الله فلا يقال: يا وجه الله أو يا علم الله افعل كذا. وإنما يدعى الله بأسمائه وصفاته فيقال يا رحمن. . فالصفات يتوسل بها ولا تدعى، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على هذا.

ويتوسل بها فيقول: أسألك بعفوك ورحمتك وأعوذ برضاك من سخطك. . إلخ.

* * *

٥٦- باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسألُ بِوَجْه الله إلا الجنة» رواه أبو داود.

هذا فيه: أنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.

* عن جابر مرفوعًا « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » رواه أبو داود.

وذلك لأن الجنة هي أعلى المطالب وفيه النظر إلى وجه الله سبحانه وفيها النعيم المقيم ووجه الله له شرفه العظيم فلا يسأل به إلا الجنة.

وكذلك ما يقرب إليها كأن يسأل الإخلاص والتوفيق للخير والاستقامة على الطاعة، فما يقرب إلى الجنة هو من طلب الجنة.

وهذا من كمال التوحيد والإيمان أن لا يسأل بوجه الله إلا الجنة أو ما يقرب إليها كالعمل الصالح والاستقامة والعافية من مضلات الفتن.

وإسناد الحديث فيه لين وضعف لكنه ينجبر بما جاء في الروايات الأخرى من النهي عن السؤال بوجه الله، فيكون هذا خاصًا بالسؤال بوجه الله الكريم أو ما يقرب إليها وما يدعو إليها.

* * *

٥٧- باب ما جاء في اللو

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]. **وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية** [آل عمران: ١٦٨].

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزَنَّ، وإن أصابك شيء فلا تقُل: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشيطان».

أي في حكم هذه الكلمة وهل تجوز أو لا تجوز، والمقصود أنه لا ينبغي استعمالها لمعارضة القدر، بل يجب التسليم والصبر وعدم المعارضة للقدر بكلمة لو، عند موت قريب أو مرض أو مصيبة.

وقوله تعالى **﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾**.

هذا ذم لهم وعيب.

﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾.

فدل هذا على أنه لا يجوز استعمالها عند معارضة القدر في مرض أو هزيمة أو نحو ذلك وإن هذا من شأن المنافقين لأن قدر الله ماض وشأنه نافذ وإنما شرع الأسباب لحكمة بالغة. فعلى المسلم أن يتعاطى الأسباب فإذا نزل القضاء فليس له أن يعترض بعد ذلك.

* وفي الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله..

فإذا أصابك شيء فقل (قَدَر) الله وما شاء فعل، وبعضهم ضبطها بـ (قدّر) الله وما شاء فعل أي قدر هذا الشئ الواقع، والمعنى الأول أظهر أي أن هذا الواقع هو قدر الله أي مقدور الله وما شاء الله فعل.

لو تفتح عمل الشيطان: أي تفتح على العبد عمل الشيطان أي وساوسه

وتشكيكه فينبغي للمـؤمن أن يتجنبها حتى لا يقع في حبـائل الشيطان وإملائه مالا ينبغي لأن هذه أمور لله هو الذي قدرها. ولهذا قال تعالى ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قـالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هـم المهتدون ﴾ وقال عليـه الصلاة والسلام « ما من عـبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعـون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لى خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلفه خـيراً منها» فمثلاً إذا عالج مريض عند طبيب ثم مات لا يقولوا لو ذهبت به إلى طبيب آخـر أو الخارج.. إلخ بل يقول قدر الله وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون ولايعترض بـ(لو).

أما إذا كـانت (لو) لبيـان ما ينبغي كـقوله ﷺ : «لو استـقبلت من أمـري ما استدبرت..» فهذا ليس اعتـراضًا بل هو لبيان الأفضل، كقولك لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا مما يبين للناس أنه الأفـضل وكقول: لو علمت فلانًا مريضًا لزرته.

وما أشبه ذلك مما يخبر به عن أسفـه على ما فات وليس على سبيل الاعتراض فهذا ليس داخلاً في الباب وإنما الممنوع الاعتراض على القدر..

* * *

٥٨- باب النهى عن سب الريح

عن أُبَيٍّ بن كعب رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به. ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به» صححه الترمذى.

لما كان سب الريح وغيرها من المخلوقات نقصًا في الإيمان وقدحًا في التوحيد نبه المؤلف على ذلك ليعلم المؤمن أن سائر المعاصي تنقص التوحيد وتنقص الإيمان وتضعفه، والإيمان يزيد وينقص، والتوحيد يزيد وينقص، وسب الريح ينقص الإيمان، لأن الريح مخلوق مدبر يرسل بالخير والشر فلا يسب الريح، بل يعمل المؤمن بما أمره به الرسول ﷺ في الحديث:

* عن أبي بن كعب مرفوعًا « لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أُمرت به».

وجاء في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك..

وجاء في هذا أيضًا الدعاء: « اللهم لا تجعلها ريحًا، واجعلها رياحًا، واجعلها رحمة، ولا تجعلها عذابًا» فهذا هو المشروع للمؤمن عند هبوب الريح وأن يجعلها رياحًا لا ريحًا لأن الله أرسل الريح لهلاك قوم هود، أما الرياح فقد جعلها الله مبشرات ورحمة ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات** ﴾ وهذا هو كمال التوحيد والإيمان أن يمتثل أمر النبي ﷺ في ذلك، وأن لا يسب الريح ولا يسب غيرها من المخلوقات التي لم يشرع الله سبها.

* * *

٥٩- باب قول الله تعالى

﴿يَظُنُّونَ باللهِ غَيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ * يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأمرِ مِن شَيءٍ؟ قُلْ: إن الأمْرَ كُلَّهُ لله﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّآنِّينَ بالله ظَنَّ السَّوءِ عَلَيهِمْ دَآئِرَةُ السَّوءِ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى:

فُسِّرَ هذا بأنه سبحانه لا ينصر رسوله. وأن أمره سيضمحل.

وفُسِّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته.

وفُسِّرَ بإنكار الحكمةِ، وإنكار القَدَر، وإنكار أن يتمَّ أمرُ رسولهِ ﷺ، وأن يُظهره على الدِّين كله.

وهذا هو ظن السوء، الذى ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح.

وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يُديلُ الباطلَ على الحق إدالَةً مُستقرة يَضْمَحِلُّ معها الحقُّ،

أو أنكرَ أن يكون ما جرى بقضائه وقدره،

أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد بل زعمَ أن ذلك لمشيئة مُجرَّدة فذلك ظنُّ الذين كفروا.

فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله، وأسماءه، وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له.

وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟

فإن تَنْجُ مِنهَا تنجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ
وَإلاَّ فَإنِّي لا إخَالُكَ نَاجيًا

﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ﴾.

﴿ .. الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء .. ﴾ الآية.

قال ابن القيم: في الآية الأولى:

المقصود من هذا الباب أن كثيرًا من الناس لا يسلم لحكمة الله ولا يسلم لله قدره السابق ولا يسلم له سبحانه ما أراده من تنبيه العباد على أغلاطهم وأخطاءهم حتى يستعدوا وينتبهوا، بل أساؤا الظن بالله من وجوه كثيرة:

١- فمنهم من يظن أن الأشياء التي تقع مما تخالف هواه لم تكن بحكمته ولم تكن بقدر سابق.

٢- ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن حكمة تقع.

٣- ومنهم من يظن أن الله جار على العباد وظلمهم حتى فعل كذا وكذا، وظلم فلان، وهزم فلان، فلماذا هذا كله؟!.

فهذه ظنون الناس وهي كثيرة. ولهذا قال الله عز وجل في المنافقين ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ﴾ وهذا في قصة أحد لما وقعت وجرى للمسلمين ما جرى من الهزيمة والجراح وقتل سبعين. نجم النفاق وتكلم المنافقون بما تكلموا به وظنوا بالله غير الحق وقالوا ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ أي هل لنا تصرف في شيء ويقولون: ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي أننا مجبورون، وليس لنا أمر، ولكن قادنا محمد إلى هذا الأمر حتى وقع ما وقع، وهذا كله من جهلهم وضلالهم ومن قلة بصيرتهم وعمى قلوبهم، ولهذا ظنوا بالله ظن السوء، وظنوا أن ما وقع لم يكن لحكمة بالغة، وظنوا أن الله لا ينصر رسله، وأنه سيضمحل أمر هذا النبي، وأن ما وقع لم يكن إلا بمجرد المشيئة. فصار ظنهم

هذا إجماع بين سوء الظن بالله من جهة أنه لا ينصر رسله ولا أولياءه ومن جهة أنه لم تقع هذه عن حكمة بل بمجرد المشيئة.

وهذا كله باطل. ولهذا بين سبحانه في كتابه العظيم حكمه وأسراره فيما يقضيه ويفعله ويشرعه وأنه يبتلي عباده في السراء والضراء والشدة والرخاء ليمحص ما في قلوب المؤمنين ويمحق الكافرين ويتوب المؤمنون إليه ويستغفروه ويعدوا للقاء الله سبحانه والقيام بحقه كما قال تعالى ﴿ **أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير* وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا** ﴾.

فله سبحانه حكمة بالغة في ابتلاء هؤلاء وهؤلاء فالمؤمنون يبتلون ليتمحص إيمانهم ولتغفر سيئاتهم وليعدوا للقاء ربهم. والكفار يمحقون، والمنافقون يفضحون ويظهر خزيهم وباطلهم.

ولكن المنافقين فسدت قلوبهم وأساءوا الظن بالله ولهذا نصر الله المؤمنين كما وعدهم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم..** ﴾ ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾ ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض..** ﴾ وهذا الوعد لا يقدح فيما يقع من هزيمة أحيانًا ليتخذهم شهداء ولحكمة بالغة أخرى تقدم بعضها أ. هـ.

ولأن الناس لو نصروا دائمًا ولم يصبهم شيء من الخلل لربما ابتلوا بالعجب والكبرياء وعدم الخضوع لله وعدم الاعتراف بتقصيرهم ونقصهم، وربما ظنوا أن هذا بحيلتهم وقوتهم وأعمالهم، فإذا ابتلاهم بشيء من هذه الأشياء انكسرت نفوسهم ورجعوا إلى الله.

والواجب على المسلم أن يفتش نفسه ويحاسبها لعله يسلم من هذا البلاء، ولهذا من فتش نفسه وجد عندها عيوبًا ووجد عندها اعتراضًا على القدر وعجبًا بنفسه وبأعماله إلا من عصمه الله.

وعلى المؤمن أن يؤمن بقضاء الله وقدره وأن له حكمة عظيمة فيما يصرفه وأن له قدر سابق وأن من حكمه وأسبابه العظيمة تهيئة عباده المؤمنين لما هو أفضل ورفع درجاتهم وليرجعوا إليه سبحانه وتعالى.

٦٠- باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». رواه مُسلم.

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بُنيَّ إنَّكَ لَن تَجدَ طَعمَ الإيمَان حتَّى تَعلَم أن ما أصابك لَم يكُن ليُخطئَكَ، وَمَا أخطأكَ لم يكن ليُصيبَكَ، سَمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «إنَّ أوَّلَ مَا خلَق اللهُ القلم، فقال له: أكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كُلِّ شيء حتى تقوم الساعة».

يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفي رواية لابن وهب ـ قال رسول الله ﷺ: (فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار).

وفي المسند والسنن عن ابن الديّلمي. قال: (أتيتُ أُبَيَّ بن كعب فقلت له: في نفسي شيء من القدر: فحدثني بشيء، لعل الله يذهبه من قلبي فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليُخطئَكَ وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيتُ عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان وَزيدَ ابن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه.

لما كان الإيمان بالقدر من أصول الإيمان وضع المؤلف هذا الباب لأن هذا مما يحصل به التوحيد وينتفي به الكفر. أي باب ما جاء من الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من إنكاره والتكذيب به. وكان المسلمون في عهد النبي ﷺ قد آمنوا بالقدر

وسلموا به لله ثم نبتت بعد ذلك نابتة في آخر عهد الصحابة وبعد ذلك فأنكروا القدر وقالوا الأمر أنف وزعموا: أن إثبات القدر يخالف العدل، وكيف تقدر الأمور ثم يعاقب العاصي والكافر على ما فعل؟ جهلاً منهم وضلالاً والتباسًا للأمر عليهم.

أما أهل الحق من أصحاب النبي ﷺ ومن سار على منهجهم من أهل السنة والجماعة قد آمنوا بالقدر وصدقوا به، وأن الله قدر المقادير وكتبها فلا يقع في ملكه ما لا يريد، بل قدر كل شيء وأحصى كل شيء، وهو العالم بكل شيء. وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا. ومعنى هذا: أن تقول هل الله يعلم الأشياء قبل وجودها؟ فإذا قالوا: نعم، فهذا هو القدر؛ إن الله علم الأشياء قبل وجودها وكتبها عنده: من يسلم ومن يكفر ومن يعصى، وإن أنكروا أن الله تعالى يعلم؛ كفروا. لأنهم نسبوا إلى الله الجهل والضلال والله تعالى يقول ﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ وقال ﴿ **لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا** ﴾ فمن نسب إلى الله الجهل، وأنه لا يعلم الأشياء فقد طعن في آيات الله وتنقصه فيكون كافرًا. ولذلك ذهب جماعة من العلماء من أهل السنة والجماعة إلى كفر القدرية وأنهم كفار لأنهم كذبوا بقدر الله وأنكروا علمه وكذبوا هذه النصوص ونسبوا إلى الله الجهل. وقد صح عنه ﷺ في حديث عمر « الإيمان أن تؤمن بالله.. وبالقدر خيره وشره».

ودل على هذا كتاب الله أيضًا حيث قال سبحانه ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ ولهذا قال: قال ابن عمر « والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم ..».

وهكذا قال زيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيره وهكذا قال أهل السنة والجماعة.

فالواجب على المسلم أن يؤمن بالقدر.

والإيمان بالقدر يشمل أربعة أمور:

١- علم الله بالأشياء.

٢- كتابتها.

٣- وأنه خالق كل شيء، ومقدر كل شيء.

٤- وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فمن آمن بهذه المراتب فقد آمن بالقدر، ومن كذب بشيء منها فقد كذب بشيء من القدر.

* عن عبادة بن الصامت أنه قال لأبنه « يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى..

أي لن تجد طمأنينة الإيمان وراحته وذوقه إلا أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك وهذا هو الإيمان بالقدر. فإذا آمن بهذا انشرح قلبه وعمل بما شرع الله له، ويأخذ بالأسباب وهو مطمئن القلب لأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وهذا تفسير للقدر من باب تفسير الشيء ببعض معناه.

وهكذا قال الصحابة لعبد الله بن فيروز الديلمي التابعي المعروف لما سألهم فأخبروه: أن الله لن يقبل منه شيء حتى يؤمن بالقدر وإلا فإن أعماله حابطة، وهذا يدل أنهم أرادوا: أنه يكفر بذلك لأن الله قال ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يصنعون** ﴾ والذي لا تقبل أعماله ونفقاته هو الكافر الذي لم يتحقق فيه الإيمان.

فمن أنكر القدر فقد أخل بشيء من الإيمان، وبركن من أركان الإيمان وبذلك يحبط عمله.

وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عوف مرفوعًا « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة» فالأمر قد أحكم ومضى به علم الله وكتابته، وهو الخلاق ومدبر الأمور على ما قدرها سبحانه وتعالى.

وهذا هو الحق وهو منهج أهل السنة والجماعة من كان عليه كان على الحق ومن حاد عنه حاد عن الحق.

* * *

٦١- باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: وَمَن أظلَمُ مِمَّن ذَهَبَ يَخلُقُ كَخَلقي فَلْيَخلُقُوا ذَرَّةً أو لِيَخلُقُوا حَبَّة أو لِيخلُقُوا شَعِيرةً» أخرجاه.

ولهما عن عائشة رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

ولهما عن ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم».

ولهما عنه مرفوعا ـ (من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ).

ولمسلم عن أبي الهياج: قال: «قال لي عليّ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مُشرفًا إلا سويته.

يريد المؤلف من هذا الباب بيان أن التصوير من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص إيمانهم وتضعفه.

والمصورون هم الذين يضاهئون بخلق الله في تصوير الحيوانات سواء باليد أو بأي آلة إذا كان المصوَّر من ذوي الأرواح.

قوله (من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي. .): هذا استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن عمل هذا العمل وهذا العامل، والمراد التحذير والتنفير من هذا العمل. وهذا الأسلوب جاء في القرآن في مواضع كقوله تعالى ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا** ﴾ وغيرها.

قوله (يخلق كخلقي): أي يصور كتصويري. فإن كانت عندهم قوة، فليخلقوا ذرة يكون لها صفات الذرة من العقل والمشي وغيرها وهي مع صغرها فهي حيوان عجيب. أو ليخلقوا حبة لها صفات من الإنبات والنفع للناس. فإن كانوا يعجزون

في الجماد النبات، فكيف في الحيوان؟.

* ولهما عن عائشة مرفوعًا « أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله» ولهما عن ابن عباس مرفوعًا « كل مصور في النار يجعل له بكل صورة...

وقد أجمع العلماء على أن التصوير لذوات الأرواح من الكبائر والمحرمات إذا كان له ظل أما إذا لم يكن له ظل كالصور في الجدران والألواح والملابس وغيرها فقد رخص في هذا بعض التابعين. وأجمع الأئمة الأربعة والجمهور على أنه محرم أيضًا كالذي له ظل وهذا هو الصواب، لأن الأحاديث تعم ما كان له ظل وما لا ظل له وتشمل التصوير الشمسي وغيرها. ومما يدل على عمومها أن النبي ﷺ لما قدم على عائشة ورأي عندها سترًا فيه تصوير تغير وغضب وقال إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم، والستر ليس فيه شيء من الظل ومن جنسه التصوير الشمسي. ويدل عليه ما وقع يوم الفتح لما كان على الكعبة صور فقدم له أسامة ماءً فمحاه النبي ﷺ.

فالواجب الحذر من هذا وأن يبتعد المؤمن عن هذه المحرمات ويجب إزالتها واتلافها وطمسها.

قوله (ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته: مشرفًا :مرتفعًا.

وقد نهى النبي ﷺ عن البناء على القبور لأنه من وسائل الشرك وكذلك الصور من وسائل الشرك وإنما وقع الشرك في قوم نوح بسبب هذه الصور.

أما ما يتعلق بما وقع هذه الأيام من الحاجة إلى الصور فهذا يقيد بقيده، من باب الإكراه إذا اضطر الإنسان إلى ذلك، فيفعله وهو كاره له، كالصور لحفيظة النفوس وما أشبه ذلك.

والصور تمنع دخول الملائكة كما في الحديث الصحيح.

ويستثنى من ذلك ما كان ممتهنًا فهذا لا يجوز تصويره ولو كان ممتهنًا، ولكن إذا استعمل ممتهنًا في الفراش فلا يمنع دخول الملائكة كما أن الكلب الذي للحرث والزرع والماشية لا يمنع دخول الملائكة لأنه مأذون فيه ومرخص فيه، فلو اشترى

بساطًا فيه صورة وجعله وسادة فهذا لا يضر لأنه ممتهن، والله أعلم.

* صور المجاهدين الأفغان داخل في هـذا المنع لأن الجهاد يقوم بدون صور، وكذلك لا ينبغي التصوير بأشرطة الفيديو.

* تحنيط الحيوانات لا ينبغي لأنه إضاعة للأموال بلا فائدة وقد يحتج بها الناس بأنها صورة وقد يعتـقد فيها باطلاً كما يعتقـده بعض الناس أنها تمنع الجن وما أشبه ذلك.

* والمنع في الحديث يشمل الصور التعليمية وغيرها.

* * *

٦٢- باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿ وَاحفَظُوا أَيمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة ممحقةٌ للكسب» أخرجاه.

وعن سلمان: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لا يُكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشيمطٌ زانٍ، وعائل مُستكبرٌ، ورَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بضاعته لا يشترى إلا بيمينه، ولا يبيع إلاَ بيمينهِ» رواه الطبراني بسند صحيح.

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتى قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم (قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا) ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَنُ».

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

وقال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

أراد المؤلف بهذا الباب بيان أن كثرة الحلف نقص في الإيمان ونقص في التوحيد لأن كثرة الحلف تفضي إلى أشياء:

١- التساهل في ذلك وعدم المبالاة.

٢- الكذب .

٣- ظن الكذب به.

فإن من كثرت أيمانه وقع في الكذب فينبغي التقلل من ذلك وعدم الإكثار من الأيمان ولهذا قال سبحانه وتعالى:

﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ فهذا الأمر للوجوب فيجب حفظ اليمين إلا من حاجة لها، فالمؤمن يحفظها ويصونها إلا من حاجة ولمصلحة شرعية أو عند الخصومة

والحاجة إليها ونحو ذلك، ولا يكثر منها لما سبق ولأنه يظن به الكذب.

* حديث أبي هريرة مرفوعًا « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب» وفي لفظ «للربح» وهو يدل على أن كثرة الحلف من أسباب الوقوع في الخطأ فهو يعتني باليمين يريد أن ينفق السلعة، ولكنه يقع في الحظر وهو محق الكسب وقلة البركة، فهي مروجة للسلعة لأنه يحلف ويقول: والله أنها طيبة أنها كذا وكذا فيغر الناس الذين يشترون منه، فربما صدقوه ولكنها ممحقة للربح الذي يتعاطاه بسبب تساهله في هذه الأيمان.

وفي حديث أبي ذر عند مسلم مرفوعًا « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره والمنان بما أعطى والمنفق سلعته بالحلف الكاذبة» فتنفيق السلعة قد تكون بالكذب أو بالصدق ولكن الإكثار منها توقع في الكذب. وربما جره الطمع إلى أن يكذب فالواجب أن يحذر.

ثم هذه الأيمان من أسباب محق البركة والوقوع في الحرام.

* حديث سلمان مرفوعًا «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم..»

أشيمط زان: أي شيخ أشمطه الشيب، الشمط: الشيب.

عائل مستكبر: أي فقير مستكبر مع فقره يتكبر والغني قد يتكبر من أجل المال. ولكن الفقير لا يدعوه إلى التكبر إلا أن هذه سجية له وشيء استقر في قلبه.

ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه: ففي هذا حذر من هذه الخصال ومنها: زنى الشيخ الكبير، فإن هذا عظيم لأن الشاب قد يتوب ويقلع، أما الشيخ فلا يحمله على هذا إلا أنه شيء استقر وبقي في قلبه.

قال العلماء: وهذا يدل على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي وضعفه.

* وعن عمران مرفوعًا « خير أمتى قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران فلا أدري.. أقال بعد قرنه مرتين أو ثلاثة..

لكن المحفوظ من حديث عمر رضي الله عنه في المسند أنه مرتين ومن حديث

ابن مسعود كذلك كما هو هنا.

ثم بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون.. أي أن الأحوال تتغير بعد القرون المفضلة الثلاثة حتى توجد الخيانة وعدم الوفاء بالنذر وشهادة الزور ويكثر هذا لضعف الإيمان وغلبة الجهل وكثرة الأغلاط.

والوفاء بالنذر واجب وهو من صفات المؤمنين، والنذر لا ينبغي كما في الحديث: «أنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج من البخيل»، ولكن إذا نذر فعليه الوفاء. وهذا في نذر الطاعة أما نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به والصواب أن عليه كفارة يمين.

(يظهر فيهم السمن) أي سمن الأجسام لكثرة الغفلة والإغراق في النعيم والشهوات ولكن لا يلزم أن يكون كل سمين متوعدًا وسيئًا بل قد يكون منهم الصالحون وهذا إشارة إلى الغفلة والإعراض عن الاستعداد للآخرة.

(خير الناس قرنى) هذا يعم الناس كلهم في هذا القرن وهم الصحابة وهم خير الناس بعد الأنبياء ثم التابعين ثم تابعي التابعين.

ثم يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته: وهذا من قلة المبالاة والاستهتار لضعف الإيمان وقلته.

أما المؤمن فلا يشهد إلا عن صدق ولا يحلف إلا عن حاجة.

قال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار.

أي كان السلف يؤدبون أبناءهم إذا شهدوا وحلفوا حتى لا يعتاد هذا. إذا كذب فيشهد على كذبه بالأيمان الفاجرة والعهود الظالمة أي يؤدبونهم ويوجهونهم حتى لا يعتادوه، لأن الصبي إذا اعتاده فقد يتساهل فيه في كبره، وهذا من عناية السلف بتربية أبناءهم على الأخلاق الفاضلة والتربية الصحيحة، وهذا هو الواجب على كل مسلم.

* *

٦٣- باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

وقول الله تعالى: ﴿وَأَوفُوا بِعَهـدِ الله إِذَا عَاهَدتُّم وَلَا تَنقُضُوا الأَيمَانَ بَعدَ تَوكِيدِهَا﴾ الآية [النحل: ٩١].

عن بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً.

فقال: اغزو باسم الله، في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تُغلوا، ولا تَغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حُكم الله تعالى. ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ، إلا أن يُجاهدُوا مع المسلمين. فإن هُم أبوا فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم. وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله. فلا تُنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حُكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حُكم الله أم لا» رواه مسلم.

أي باب ما جاء فيه من تعظيمهما والتحذير من إخفارهما والتحذير أيضًا من جعلهما للناس لأن هذا وسيلة إلى إخفارهما، فالواجب على ولاة الأمور أن لا يجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه، وإنما يجعلون لهم ذمة الرئيس والملك وأصحابه.

وهذا من باب تعظيم ذمة الله وذمة رسوله، وهو من باب إكمال التوحيد

والإيمان، واخفارهما نقص في التوحيد ووسيلة إلى التلاعب.

قال تعالى ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾.

فمن عاهد بذمة الله أو ذمة رسوله فعليه أن يوفي، وإن كان قد أخطأ في العهد بذمة الله ورسوله لكن عليه أن يوفي بذلك وعليه أن لا يخفر بذلك.

﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾.

أي لا تنقضوا العهود بعد أن أكدتموها بالأيمان الشديدة والمعاهدة، بل أوفوا كما قال سبحانه ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** ﴾ وقال ﷺ « يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء عند إسته ينادىٰ عليه: هذه غدرة فلان بن فلان » وهذا فيه وعيد عظيم ويدل على وجوب الوفاء بالعهد.

* حديث بريدة بن الحصيب عند مسلم أن النبي ﷺ كان... فيوصيه في نفسه وفي جيشه أن يتقي الله فيهم وأوصى الجيش بتقوى الله. (ادعهم إلى الإسلام أي ادعهم إلى الشهادتين أولاً قبل كل شيء كما في حديث معاذ حين بعثه إلى اليمن، فإذا أجابوا ونطقوا بالشهادتين علّمهم بقية الفرائض.

قوله (يجرى عليهم حكم الله): أي في الأوامر والنواهي.

خصال أو خلال: شك من الراوي والمعنى واحد وهذا من حرص الرواة رحمهم الله.

فإن أبوا فاسألهم الجزية: أي أبوا الدخول في الإسلام والهجرة فاسألهم الجزية وأقبل منهم. وهذا في اليهود والنصارى والمجوس كما قال تعالى ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ [براءة: ٢٩].

فالسنة أطلقت من يؤخذ منهم الجزية، والقرآن قيد بأهل الكتاب وألحقت السنة بأهل الكتاب: المجوس في أخذ الجزية لا في حل الطعام والنساء وغيره.

فاستعن بالله وقاتلهم: فيه وجوب الاستعانة بالله وأن المؤمن يستعين بالله في قتال أعدائه ولا يعتمد على قوته فقط.

وإذا حاصرت أهل حصن: أي الأبنية والقلاع حيث كان يتحصن بها أهل الكتاب غالبًا، ولم يكونوا مع الأعراب في البوادي.

فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه.. فإنكم أن تخفروا ذمتكم.

الإخفار: مصدر أخفر (رباعي) هو نقض العهد.

أما الخفر: فهو (ثلاثي) من خفره يخفره إذا حماه ونصره ومنه الخفير وهو الحامي، فأخفره: أي أزال حمايته وعهده.

فالواجب على المسلمين أن لا ينقضوا العهد والميثاق، ويخفروا، وليس لهم أن يجعلوا ذمة الله وذمة رسوله لأنهم إذا وقعوا في الإخفار صار أسهل في حقهم من الإخفار في ذمة الله وذمة نبيه مع أن كلاهما لا يجوز، لكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الكبائر أشد من بعض.

وكذلك إذا طلبوا منهم أن ينزلهم على حكم الله فإنه لا يقبل بل يقول: أنزلكم على حكم أصحابي. ولا بأس أن يقول: سوف اجتهد في إنزالكم على موافقة الشرع ولكن لا أستطيع أن أنزلكم على حكم الله لأني قد أخطئ فيعرض عليهم اجتهاده حسب ما يوافق الشرع، لأنه إذا أخطأ يكون قد كذب على الله فهذا من باب الحيطة، ومن باب الآداب الشرعية في إعطاء العهود والمواثيق وإنزال العدو إلى حكم يرضاه الله تعالى.

* * *

٦٤- باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألّي عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك» رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: «إن القائل رجل عابد: قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته».

أي باب ما جاء فيه الوعيد فإنه لما كان الإقسام على الله جرأة على الله ونقص في التوحيد وضعف في الإيمان ذكره المؤلف هنا.

جندب: بفتح الدال وضمها لغتان.

* حديث جندب قال قال رسول الله ﷺ قال رجل والله. . .

من ذا الذي يتألى عليَّ: التالي هو الحلف والألية اليمين.

والحديث فيه التحذير من التألي على الله والإقسام عليه بأنه لا يفعل كذا ولا يفعل كذا، والله لا يغفر لفلان ونحوها، فكل هذا ظلم وجور لا يجوز لأنه ليس للإنسان علم من الله ولا عندك حق عليه، ولو كان هذا الرجل فاعل كبيرة أو صاحب معصية، بل عليك أن تدعو له بالهداية لأن الله قد يغفر له وأنت لا تدري.

وهذا فيه خطورة اللسان فيجب حفظه والحذر منه وهو نقص في التوحيد والإيمان.

* في حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد: أي أن الذي حمله على هذا غيرته وعبادته التي يتعبدها على أن قال هذا الكلام السيء. وفي هذا أن الإنسان قد يغار غيرة خاطئة خاسرة، فيجترئ بها على الله، وقد يكون غيوراً فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على غير بصيرة، وقد ينكر منكراً على غير بصيرة، ولذلك يجب التقيد بالقيود الشرعية في إنكار المنكر والنظر إلى الحدود التي حدها الله.

أوبقت دنياه وآخرته: أي أهلكتها. . لأنها كلمة خطيرة وفي الحديث «إن

العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً تهوي به في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» رواه مسلم.

وفي لفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لايتبين فيها يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه» أي لا يتثبت فيها.

* * *

٦٥- باب لايستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله، نهكت الأنفس وجاع العيال، وهلكت الأموال. فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله ـ فقال النبي ﷺ: سبحان الله ! سبحان الله! فما زال يُسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال النبي ﷺ: ويحك: أتدرى ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك. إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه) وذكر الحديث رواه أبو داود.

ذكر المؤلف هذا الباب لأنه من كمال التوحيد والإيمان، ولأن هذا من وسائل الشرك وهو الاستشفاع بالله على خلقه، فشأن الله أعظم من ذلك فلا يستشفع بالله على خلقه بأن يقول لأحد: أني استشفع بالله عليك، ولكن يستشفع بالمخلوق على المخلوق فيقال: يا فلان أنا استشفع بالله عليك فهذا لا بأس به، أما على الله فلا تجوز لأن شأن الله أعظم من ذلك، ومن شأن المشفوع به أن المشفوع إليه يكون أعظم، وهذا لا يليق بالله لأن الله فوق الجميع. بل يسأل الله بأسمائه وصفاته.

* عن جبير بن مطعم قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله..

قال النبي ﷺ: سبحان الله. هذا يقوله ﷺ في الأمور العظيمة المحبوب منها والمكروه، في الأشياء التي تعظم أو يتعجب منها أو ينكرها.

ولها أمثلة كثيرة كحديث الأنواط، وحديث أن الأمة شطر الجنة وغيرها.

* * *

٦٦- باب ما جاء في حمايه النبي ﷺ حمى التوحيد، وسد طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: (انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»). رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس رضى الله عنه: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. فقال: يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله. ما أُحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل). رواه النسائى بسند جيد.

هنا تكلم على حماية التوحيد من جهة الأقوال؛ وقد تقدم طرق وباب حماية التوحيد من جهة الأفعال وحماية جناب التوحيد، والجناب هو الجزء منه، وهذا الباب في حمى التوحيد، والحمى غير الذات وخارج عن الذات، فهذه الترجمة أبلغ فيما يتعلق بالتوحيد وفيما يتعلق بالأقوال. فالرسول ﷺ حمى جناب التوحيد وحمى حماه من جهة القول والعمل حتى لا يقرب الناس من الشرك ويقعوا فيه، وحذر من وسائله وذرائعه الموصلة إليه، وهذا من كمال البلاغ.

* عن عبد الله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا. .

السيد الله: هذا من باب التواضع خوفًا عليهم من الغلو، وإلا فإنه سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام فقال ذلك تواضعًا ولئلا يقعوا في الغلو. فهو دليل أنه إذا قيل للإنسان أنت سيدنا، ينبغي أن يقول: السيد الله حتى لا يقع في قلبه شيء من التعاظم.

لا يستجرينكم الشيطان: أي لا يجركم الشيطان إلى مالا ينبغي، أي لا يتخذكم جريًا أي رسلاً إلى ما يبعث إلى الشرك والغلو، والزموا الأقوال المعتادة كـ: أبا

القاسم، يا رسول الله، يا نبي الله، ودعوا عنكم الأقوال التي قد تفضى إلى الغلو.

لا يستهوينكم: لا يوقعنكم في الضلالة.

كما قال تعالى ﴿ يا أيها الرسول .. ﴾ ﴿ يا أيها النبي .. ﴾ ﴿سبحان الذي أسرى بعبده.. ﴾ قال ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب .. ﴾.

والمقصود من هذا سد الذرائع التي قد توصل الناس إلى التساهل إلى الشرك فإنهم إن قالوا له يا سيدنا وغير ذلك من الألفاظ التي يأتي بها الناس الآن من الغلو فقد يجرهم إلى أن يعبدوه من دون الله ويدعوه ويستغيثوا به ويزعموا أنه يعلم الغيب وغير ذلك. وقد فعلوا كما قال صاحب البردة: يا أكرم الخلق مالي..

فوقع في الغلو حتى قال عن النبي: أنه ينجي يوم القيامة، وأن من لا ينجيه النبي ﷺ فإنه لا ينجو وهذا من أعظم الغلو، وقال: أن عنده علم اللوح والقلم، وأنه مطلع على كل شيء.

فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه وأن يقتصد في قوله سواء مع الرسول ﷺ أو مع غيره وعليه التأدب بالآدب الشرعية في أقواله وأعماله مع الرسل والصالحين والعلماء حتى لا يقع في الغلو الذي وقع فيه اليهود والنصارى، وأوصلهم إلى أن عبدوا أولياءهم واستغاثوا بأنبياءهم وصلحائهم وعلمائهم، ووقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

* * *

٦٧- باب : في قول الله تعالى
﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدرِهِ وَالأرضُ جَمِيعًا قَبضَتُهُ يَومَ القِيَـمَةِ﴾ الآية

[الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثَّرى على إصبع، وسائر الخلق على أصبع. فيقول أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه: تصديقًا لقول الحبر - ثم قرأ: رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدرِهِ وَالأرضُ جَمِيعًا قَبضَتُهُ يَومَ القِيَـمَةِ﴾ الآية.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجرُ على إصبع - ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الله».

وفي رواية البخاري: (ويجعل السموات على إصبع - والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع) أخرجاه.

ولمسلم عن ابن عُمر مرفوعًا: «يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى. ثم يقول: أنا الملك - أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين السبع - ثم يأخذهن بشماله - ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»).

وروى عن ابن عباس قال: ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال: ابن زيد حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكُرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض).

وعن ابن مسعود قال: بين السمآء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام - وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام - وبين

الكرسي والماء خمسمائة عام ـ والعرش فوق الماء ـ والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم) أخرجه ابن مهدي عن حماد بنَ سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى: قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؟ قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة؛ وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة. وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم) أخرجه أبو داود وغيره.

هذا الباب الأخير في الكتاب جمع أنواع التوحيد الثلاثة.

قال تعالى: ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ هذه الآية تبين عظمة قدرته سبحانه وتعالى، وأنه يطوي السموات والأرض ومن كان بهذه المتانة فهو أحق أن يعبد ويطاع، وهو الذي له الكمال في أسمائه وصفاته وأفعاله لا شبيه له ولا ند له ولا يقاس بخلقه، فهو القادر على كل شيء سبحانه.

* عن عبد الله بن مسعود قال جاء حبر من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال..

حبر: بفتح الحاء وكسرها وهو العالم من علماء اليهود.

يا محمد إنا نجد الله يجعل السموات والأرض على إصبع: أي أنه سبحانه يحمل هذه المخلوقات على أصابع خمسة فمع عظم هذه المخلوقات السموات والأرض فإنه سبحانه يأخذها بيده ويهزها « أنا الملك أنا الجبار» أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ أين ملوك الأرض؟، وتلا النبي ﷺ الآية تصديقًا له، وفي هذا إثبات الصفات لله، وأنه سبحانه له يمين وشمال، وأن كلتا يديه يمين كما في الحديث

الآخر، وسمى أحدهما يمينًا والآخر شمالاً من حيث الإسم، ولكن من حيث المعنى والشرف كلتاهما يمين سبحانه وتعالى، وليس في شيء منهما نقص.

وكذلك الكف قال: ما السموات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم.

* وعن ابن مسعود قال « ما بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام. . .

* وعن العباس مرفوعًا « هل تدرون كم بين السماء والأرض قلنا الله ورسوله أعلم. . .

وهذه من أحاديث الصفات ومن أحاديث العلو وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله سبحانه فوق عرشه، فوق جميع الخلق، وعلمه في كل مكان، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر.

وحديث ابن مسعود حديث صحيح جيد، وحديث العباس وإن كان في سنده انقطاع لكنه ينجبر.

وله روايات أخرى أن بين السماء الدنيا مسيرة إحدى وسبعين سنة أو اثنتان وسبعون سنة أو ثلاث وسبعون سنة، وجمع بعض أهل العلم بينهما بأن السير يختلف، وأن خمسمائة عام بالنظر إلى سير الأحمال، وسير الأقدام، والسير العادي.

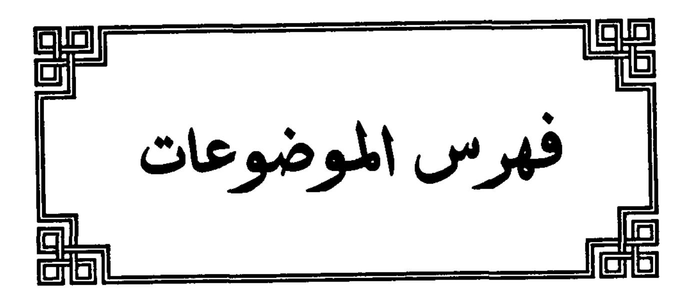
وثلاث وسبعون سنة بالنظر إلى السير الخفيف القوى، فإن مقداره يكون بمقدار السدس بالنسبة إلى سير الأحمال المثقلة ونحو ذلك.

وعلى كل تقدير فهذا يبيّن عظمة الله وعلوه، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

وفيه الدلالة على ارتفاع هذه المخلوقات، وسعه ما بينها من المسافات العظيمة، وربك الخلاق جل وعلا هو الذي خلقها فهو أعظم منها وأكبر سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *


فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

* * *